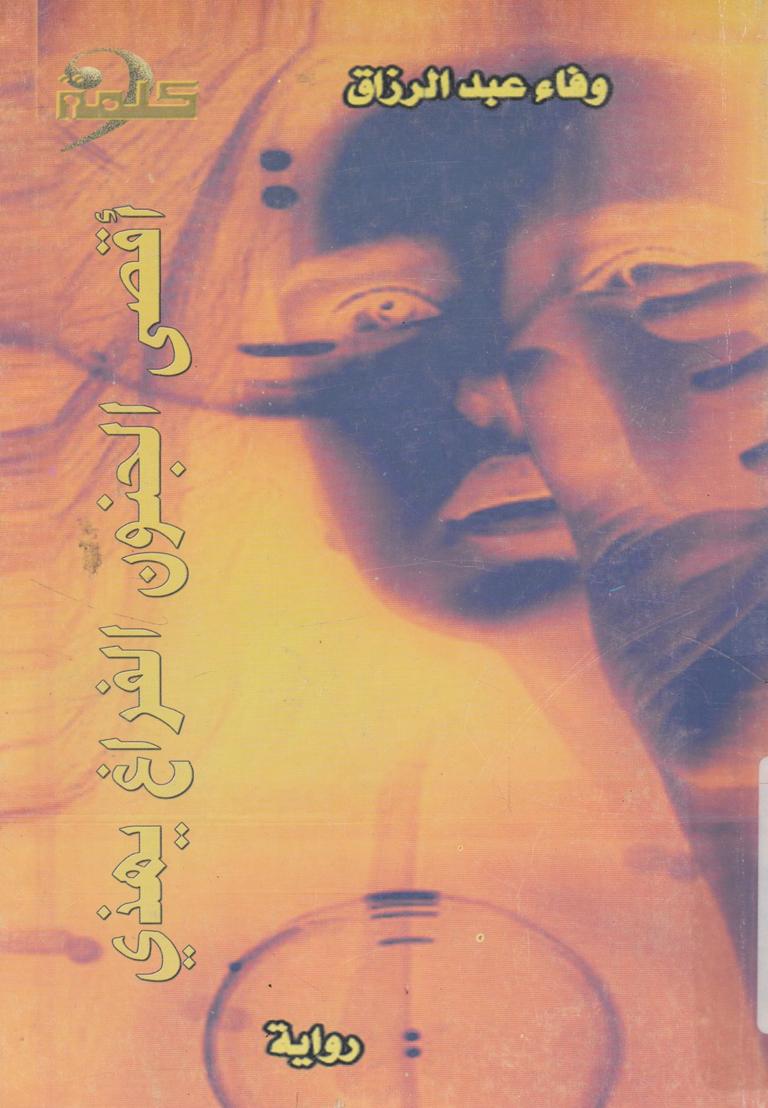

كلمة
وفاء عبد الرزاق
أقصى الجنون الفراغ يهذي
رواية

أقصى الجنون.. الفراغ يهذي

رواية

وفاء عبد الرزاق

كتبت في 2002-2003

مفتاح :

التفاصيل تمتد منذ الألف مليون نبتة في أول حقول سومر، إلى عشتار العالم وأكديات يتوالدن الألم، إلى تمّوزيين بعدد النخيل الشهيد في بصرة المياه والشناشيل وفتح الفتوح..
وإلى كربلاء لا تزال ، إذ تتحول العراقيات إلى زينب الأسى ولكن أيضا إلى سكينة الشموخ والتحدي..
إليهنّ، وإليهم، وبأقصى الجنون.. الفراغ يهذي.

إهداء:

في عيون نفسي، أرى نهراً وهبه الله قوّته، وفي أعماقه قلبي بصلواته الخمس.أتوضأ بسعادة إلهية كما لو أن العالم ملك يديّ، ألمس ذراعه تطوقني، تهبني سكينةً لا تتكرر إلا بذاتها، أنتسبُ إليه، أتشرّب بمائه، بنبض أرضه، وأقف جديرة بابن إله.
ألا تحتوي موقداً أنتَ جمره؟

وفاء

- 1 -

لا يفتح الشرفةَ إلاّ مداها
لا يشرب الجرحَ إلاّ مخالبه.

*

جدَّتي:
ألجأ إلى مراسلتكِ كمن يلجأ لرصيف عاصم من الخوف، أشعر أن في حلقي عصير من نبات الصبَّار، بينما أشواكه راحت تخترق شفتيَّ.... كتبتُ لك حروفاً مبعثرةً أبحث من خلالها عن الجملة المدهشة التي ستروق لكِ حين قراءة رسالتي، لكني في كل مرة اشعر بالتناقص شيئاً فشيئاً.
هل شعرتِ مرة أنكِ ستصبحين ضفدعة؟
لا تستغربي سؤالي.... أو أنَّ الأطعمة بداخلكِ تتحول إلى جثة؟
أرجوكِ جدتي، تقبّلي أسئلتي غير المألوفة ولا تتجاهلينها أو تفسدي أية محاولة بيننا للتحاور.
صدقيني جدتي.. كل مرة أرى ضفادع تتعقبني، تدخل داري، تأكل معي وتشرب بنفس القدح الذي اشرب به،

حتى تـُحرِّك السُّكر بالشاي عوضاً عنـّي... قد تقولين جُنَّت حفيدتي، أعذركِ، لكني أقول الحقيقة، ذلك لأني لستُ المجنونة، بل جُنَّ أكبر الضفادع وراح يبصق على وجهي ، يدخل أحشائي،ثم يخرج منها يبصق ويعود إلى مكانه . مع ذلك أجدني قادرة على الوقوف أمامك الآن وأشمُّ رائحة دمعكِ المنسكب على ورق رسالتي.

تخيَّلي أنـّي أسقط من نفسي حين تصارعني النقائض، فأراني داخل إطار لوحة "الجرنيكا"

ثم تأتي الضفادع تجرني بقوة من الإطار ، تشدني نحوها ، وتأخذني إلى لوحة الضفادع.. نعم،، حتى الزمن أراه يسقط من يدي حين تغيب النجوم عن سمائي وكأن الجميع يتجاهل غيابها..... تصوري جدتي، أشعر أحيانا أنني مجرد ثقب أسوَد.

تخيَّلي ، أن في داخل كل منـَّا ثقب أسوَد.

أظنـُّكِ في الورقة الأولى من الرسالة.

ثمة كهولة تزحف على صباي.. ترتجف الطرقات تحت قدميّ، عيناي تصارعان دموعهما والحياة مجرد كوّة نصفها زفير، والنصف الآخر ضياع .

بالرغم من تباعد الأصوات عني، كنت صاغرة لشيء جميل في داخلي ، يخلع عليّ أسماءه ويدفعني كي أكون شيئاً رغم أنه ليس عليّ أن أكون، وإنما قدري وما يريد.

لم أستطع الانفصال عمّا تركته، لأني في القراءة الصحيحة أعرف الأسماء، وأعرف وطني كمعرفتي بنفسي ، وأعرف أن الماضي أكثر رأفة من المستقبل، إلا أنَّ جرياناً خفيفاً يتدفق ويقودني إلى تلك البداية العارية فيشدني نحوه بكاء طويل.

تنهدتُ، وبدت على وجهي علامة استفهام، فقد أخافني الذي يمشي على شفرة الدرب معي، يتتبع أثري ويقف صامتاً يراقب الخسارة التي سأجنيها من بداية كأنها خفافيش ملتصقة بجلدي.

تباطأتُ ،تعثرت خطاي، ثم أثقلتُ المشي،ارتجفتُ، أحسستُ كأنه متخفٍ بين ضلوعي، توقفت فجأة، و بعد أن اجتزت الزحام شعرت بالوهن وبأشرعة العرق تقود سفني، تدخلني حلمة حامضة
وتتحكم بمرارة الظمأ في ريقي .

كانت خطواته متشابكة مع خطواتي. يلاحقني حتى في تنفّسي، إذ كدت أسمع لهاثه ، وبمجرد أن أقيس مسافة

التفاتتي يختبئ كشبح. حين اشم رائحة خطواته العالقة بالتراب، تصبح كل الساعات عالقة بين جفوني كدموع متحجرة.

كان الشارع مزدحماً بالمارَّة، نساء تزيّنَّ بأقراط وقلائد ، وأخريات محجبات. رجال بملابس أنيقة، آخرون تقدمت كروشهم فأعطتهم شكلا مترهلاً، حفاة ضائعون على الأرصفة، عجائز، صبية ، بائعو الخضار والفاكهة، فتيات التصقن بالبنطلونات التصاقاً فبدا الجينز كأنه خُبّط على أجسادهن الرشيقة ،أطفال على عتبات الدور . نصف نوافذ مفتوحة وأبواب وسعت أغانيها ، أغاني جورج وسّوف تملأ المكان، بينما شاي المقاهي أشعرني بانتمائي لجسدي . أنا ،المتعبة التي تحمل أشياءها وتمضي إلى امرأة لا تعرفها، ربما لها وجه تقرحت ملامحه،أو قلب لا يخفق بدم.

بدا على جسدي الوهن، وذوى بتصبب العرق الرائب عليه. أصغيت إلى الرقيب والصوت الذي بداخلي وهو يستفزني ويشجعني كي أكون قوية رغم تخلي الوجوه عني. تطلعت إلى العناوين حاملة معي كل إثباتاتي الشخصية ، حتى الوصل الذي حصلت عليه في الحدود ، والذي سيكون صك براءتي عند دخولي بوابة النجاة.

تجولـت بمخـابئ الـروح باحثـة عـن مكـان آمـن يقـرأ شـحوب ملامحـي، تعثـرت فـي خطـوتي عنـدما سـألني خاطري عن اسمي ، تهيأ لي أني سمعت الصوت الذي يتتبّعني لكني لم أره، همستُ لنفسي:

- لا يـصـهركِ التهيـؤ فقـد عرفـتِ منــه الكفايــة، إنـك ستهلكين إذا لم تتصبَّري.

سـوريا أولـى محطـاتي. وأول اللقـاءات مـع المـصير المجهول.

عند أقرب بقّـال.. دخلت رامية حقيبتي الصغيرة على الأرض وقد أبقيتها بين قدميّ خوفاً من حـوادث الغربـة ومفاجأتها، نظرتُ في مرايا الشارع لم تعكس وجهـي ، كـان بينـي وبينهـا الجمـر والـشتات ، وحـدي اشـعر بـأن دمــي يلتــفُّ حـول رقبتــي كثعبــان ، طويـت الـدرب ليفرشني على الأزقة وعلـى زجـاج واجهـات المحلات، فـي تلـك الواجهـات رأيتُ وجهـاً لا يـشبهني ، بـل راح يـصق علـيّ ، تنكـرتْ لـي أعـضاء جسدي وأصبحتُ الغريبة عنها، ومثل ضائع تاهت به السبل رحتُ أطلب من صاحب الدكان:

- هل تسمح لي يا أخ باستخدام الهاتف للاتصال بأحد الأصدقاء.

- أجاب:
- أي شو عليه الدقيقة بليرة. أي لا تحزني يا أختي.
- أيهـا الفاضـل أنـا لا أملـك ليـرة، معـي دولار.
- أي .. شو عليه زيادة الخير خيرين.
لمْ أجد مَن أصغي لـه، أو يسمعني و يجذبني نحوه، الأحلام تطوف كأنها غنّام والآمال ماشية.
ضاق صدري وتشققت شفتاي مثلما ضاق الكون وقت سألني الشرطي عن اسمي ودوّنه على قصاصة ورقيةٍ لتكون صكّ الغفران لدى دائرة الأمن، القسم الخاص بالعراقيين.
توقعت انتهاء الطعنات بعبوري الحدود، لم أدر أن خارطة الحزن واسعة، وأن للسفر أسرار، أو ربما حكاية لم نصلها. ضربتُ على قلبي محدثة صوتاً:
- يبدو أنه تخمين خاطئ أيها القلب ، مازلتَ تـُباع وتـُشترى.
لست أدري لماذا ذكرني البقال بأن لساحات المعارك وجوه متعددة. وأن الحلم رصاصة تتمدد بخلايا امرأة لا يعرفها أحد، حبلى بالحروب وسلاحف تزحف وتتنزه بتنهيدة لافحة... بعد أن أدرتُ القرص بيد مرتعشة، تلهّفتُ لسماع كلمة عبر الهاتف وقلبي

تتسارع نبضاته. مسحتُ عرَق جبيني وتهيَّأتُ فهناك دوما ما يُكسر الخاطر .

- مرحباً خالة،الأخ عبّاس موجود؟

- لا، غير موجود ، خيراً إنشاء الله ؟ سيأتي من العمل مساءً.

نظرتُ إلى ساعتي، كانت الخامسة بعد الظهر، حيث أضحت اللّحظات كدهر، طويتُ حقيبتي وجلست على قارعة الطريق بعد أن اشتريت من البقال بسكويت وعلبة كوكا كولا.

لم أرغب سوى بمواساة المسيح الذي أحمله بين ضلوعي، وأن يأتي عبَّاس إلى بيتهم قبل أن يحل الظلام، ويساعدني ريقي على بلع البسكويت، وأن ترد عليّ الشرفات أو تسألني عمّن ضاع مني في الطريق الطويل وأنا أحتجب بخوفي وكأنني بين فكيّ طاحونة.

ربما حُكم علي أن أعشق مكر الجراح.

عيناي الحائرتان اتسعتا واقتربتا باحثتان عن سؤال، فلتت منّي بعض كلمات ،عبثا حاولت ترتيبها ،خرجت من فمي على شكل قيىء مـُرّ... تمنيتُ وقتها صدرا دافئا، أرمي رأسي ليرتاح على تنهداته .

خفت أن يتأخر صديقي الذي لم أره منذ زمن بعيد، شعرت بدوار في رأسي واستسلمت للصمت.

اتخذت مساحة صغيرة من الأرض على حجم عزلتي، فسحة ارتاح عليها وإن كانت على شكل صخرة ناتئة ، ولما أطلّ البقال من الباب ووجدني أجلس القرفصاء متكورة على جسدي، أشفق عليّ:

- أختي.(ما في بجيبك دولار ثان؟ يا لله اتصلي ثانية، والله حرام تجلسي هَون والليل قرّب).

أعطيته دولاراً واتصلت. إثناء محاولتي الاتصال نسيت الأرقام.

جفّ ريقي وفاحت رائحة فمي الجائع حين هذيت:

- مَن يغيّره ؟

- شو عم تحكي!

- أجبت:

- الخراب، ألا تسمع عواءه؟

- الخراب؟

"رد مستغرباً "

الهذيان يهدئ النفس أحياناً،ربما سيكون علاجي الجديد.

اقشعر بدني لمرور انفاس الشبح قرب اذني، مر العصر و تفرق الزحام كل صوب وجهته، معدتي بها

شـوق الــى أي شــيء دون تحديـد، خبـز، سـلطة، رز..
عـصرت عـصارتها الحامـضة واصـبح كـل شـيئ فــي
عينـي له شكل النعش، فقط أملي بلقاء "عباس".

- 2 -

دمي نشيدي
ليس على النخيل غيره.

جدتي..
علـى نافـذتي سـمعتُ طـرق الـريح، أسـرعت لإغلاقهـا
لكنـي فوجئـتُ بعـصفور مقلـَّم الجناحين،وقبل أن أغلقهـا
تـهرباً من رعـب المنظر اخترقت ريشة ضلفتَـيْ النافذة
وعاندت حتـى استقرت بين حديد النافذة ورغبـة الـريح
بمطاردتها.

بـدأتُ أراقبهــا، مـددتُ يـدي نحوهــا لألـتقط نـصفها الخارجي، لكن ما ان فتحتُ النافذة تلاشت، تمنيتُ أن يلتقطها الرصيف ، أي رصيف سيكون رحيماً.
لستُ أدري لمَ تحولت جدران غرفتي إلى قلامة أظافر تحاول التهام كل شيء،هشمت المرآة الصغيرة على الجدار وخربشت الصبغ الهرم، بدت جائعة لا تكتفي بوجبة واحدة، ابتعلت المسجّل الصغير والشريط الذي احب سماع أغانيه ، كل ما خشيته لحظتها أن تلتهمني قبل أن أكمل رسالتي اليكِ .
حتى التلفاز عرض وقتها فلمَ "الفك المفترس"
حاولتُ الهروب من الافتراس وحمدتُ المطاعم التي تطهو لزبائنها افخاذ الضفادع،هرعتُ إلى صحيفة مرمية على الأرض اتصفح الأبراج ، هي محاولة أخرى للهرب، لكن أول برج وقعت عيني عليه هو برج" العقرب".
جسدي المحموم تقع على كاهله سيرته الذاتية ويهبط ثقل جواز السفر. رغبتُ تخفيف الحمّى لاجئة إلى بعض المهدئات، لم تكن سخونة عارض ما، إنما سخونة اللامكان واللا جهة.

استطيع أن أسمّي هذا النوع من الحمّى بحمّى "السخونة اللزجة" ، ألستُ مَن بصق بوجهها ضفدع؟
نعم جدتي.. نفثت القلاّمة ضفادع بألوان سود ورصاصية، وامتدت ألسنتها اللزجة تلحس كل شيء حتى شراشف السرير، ملتصقة بي ليصل نقيقها روحي.
سرتُ بعض خطوات بطيئة وأخرى متعثرة، لجأتُ إلى وضع الانتباه لأتخلص مما أعانيه، في غمرة ما أنا فيه من سخرية اللزوجة ومخالب القلامة بدت الأشياء واضحة أمامي، ورحت أسمع الضوضاء في الخارج، مسحتُ عَرقي ، سرتُ نحو الحمام ، أخذت بعض رذاذ من الماء ورششته على وجهي، سمعتُ وقع مطر خفيف، فتحت الشبّاك لاشتم هواء عذبا ، لاحت أمامي بعض الزهور في حديقة صغيرة قريبة من حافات النوافذ المتلاصقة، زهور غسل زهوها المطر.
تذكرتكِ جدتي، تذكرتُ أنكِ متشوقة لقراءة الورقة الثانية من الرسالة.

* *

أمسك بالليل ، تخرج لي الثعالب، أمسك بزمني الجديد يتعقبني شخص مجهول ويدخل أنفاسي.

أحط أول قدم لي على عتبة الطريق، تتقافز أشكال جديدة بهيئة ضفادع.
أتذكر وطنا، أي وطن،أرى خرافا مُساقة للسلخ ، أهيم في تهيؤاتي وانتبه على صوت صاحب المحل يسألني ثانية :
- عندك رقم غير هذا يا أختي؟
فارد وكأني بلعت موس حلاقة:
- لا والله .. فقط عباس.
تصرخ أعماقي وتشتمُ الأصوات التي ليس لها نبرة خجل. أرى العتمة على الحوائط والأبواب، أصمت،أثور، أهدأ وأسترجع ماضيا يوقظ الشجر.
في هذا الإثناء وبعد عدة محاولات ردّ عباس على التلفون، وسألني عن موقعي الآن، أعطيت الهاتف للبقال ودلّه على عنوانه، فطلب لي سيارة أجرة، بعد أن أكد على السائق ولقّنه العنوان كما أخبره عباس.. وقتها لم أفهم منه سوى السيدة زينب .
ثلث ساعة وأنا أكتشف الشوارع ووجوه المارّة و شحوب الأركان، أتعرف على وهم بين حقيقة وهمية، لفت انتباهي ضجيج وبكاء، استفزتني لعنات رجل أكرش يضرب طفلا ضربا مبرحا والصغير يلوذ

ويتوسل ويقسم ألاّ يفعلها ثانيـة... لعنتُ العوز والفقر، بسببهما تطوّحَ طفل بين ضربات رب عمل قاس.

غمرتني العباءات السود بأمومة لا يضاهيها شـيء، وانتصرتُ قليلا على تعبي بانتشاء جميل وهمهمتُ:

- هل جاء العراق إلى هنا؟

سمعني السائق وأجابني بهزة رأس وإيماءة صامتة.

لم أحلم يوماً أني سأمشي نحو هذه البداية، كما أنـي لا أعلـم إن كانـت بدايـة أم نهايـة، كنـت لا أشـعر بالأشـياء حـولي إلا الهـواء الـذي يختـرق أنفـي ، فقـط عينـاي تدوران حول الأشياء. كلاجئ ترنحت أرجل غربتـه ،، سألت السائق:

- متى نصل يا أخي؟

- ها قد وصلنا.. نحن في الشارع بالضبط.. وهذا هو رقم الدار الذي أخبرني به البقال.

هو سيدتي؟

- لست أدري. لحظة من فضلك.

تاهت يدي بين الأوراق، ففـي حقيبتـي اليدويـة الكثيـر، الكثير الذي لا يدلني على شيء، عناوين كثيرة ،وأرقـام هواتـف غريبـة علـي، وحـين اعتـصّر الحـزن معـدتي نهرته:

- ما أجراك أيها الحزن.
في محنة البحث شاهدت "عباس" منتظراً ، يتفحص السيارات المارة.. وقد بدا أكثر نحولاً عمّا كنت أعهده وأشدُّ سمرة.
ارتبك عبّاس حين رآني بينما تركنا السائق لاعناً شاتماً.
آآآآآآآآآآآه.....واحتضنا بعضنا.
الآهة قوّتنا، لم تعنّا غيرها، دخلنا باحة الدار الصغيرة ، صالة معتمة وغرفة متواضعة جداً، البيت عتيق ، السقف والحيطان تواطئوا مع الزمن . أشارت لي الحاجّة بالتحية وهي تفترش سجادتها وتصلّي .
في صريره أنّ الباب ونز ترابا... أسرع عبّاس بإحضار علبة بيبتسي كولا وقليل من الفاكهة ريثما تنتهي أمه من صلاتها وتهيئ لنا الطعام.
صرخنا دون أن نصرخ واهتزت أضلاعنا بالعاصفة ،احترقنا وخمدت حرائقنا، تطلعنا لبعضنا ، كل يتفقد خطوط الزمن في الآخر .. شعرت بعذرية الدمع ،أنا التي لم يعد يرعبها شيء أو يعنيها تيه بلا عنوان. كل شيء له طعم المنفى وشكل الظلّ .

سمعتُ .(السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله) ففرحتُ، وبعد أن انتهت من تسليمها هلّلتْ:

- (مليون هلا ومرحبا برائحة أهلنا، يا هلا، يا هلا).

كان العراق(بشيلتها) والفرات بخديها يحترق ودجلة في عينيها تشتعل، شط العرب ينزُّ من عروقها يحتضن أبعد قلب ، عدلّت عصّابتها وابتسمت ثم احتضنتني.

انطويتُ وبكيتُ ، بكيتُ وأجهشتُ حتى كدتُ أن ألامس رئتها، شممتُ حليب صدرها ،وصحتُ:

- (آخ يا يمّه آخ).

تدارك عباس الموقف ماسحا دموعه:

- يا لله حجيّة هاتي المقسوم.

لم نسأل أرواحنا، هي التي تكلمت، لم نسأل عن أي شيء ، الأشياء انتشرت حتى في ثقب الباب.

ونحن على المائدة صاحبتني قشعريرة، تذكرت قول والدتي:

- (إذا مرَّت الروح من جنب الإنسان يقشعر جلده ويرتعد بدنه).

لكنهـا لـم تكـن قـشعريرة فقـط، كانـت تلامـس جلـدي، جسمها يميل نحوي، من تكون الروح هذه ؟ أهـي امرأة أم رجل؟ ثم اخترقتُ الصمت:

- عباس .. ما باله السائق؟

- الملعون يريد عشر(ليرات) أجرة بسبب دخولـه الشارع وليس على الشارع العام.

استنشقتُ عمق اللعنة وزفرته، غضضت بصري عن عينيّ عباس المليئتان بالأسئلة واختبأتُ خلف قولي:

- نحن في غيبوبة إنسانية، ونحن نزداد ارتخاءً كلما غبنـا عن قوميتنـا وتشبعنا بلطم الخدود.. بلاد العرب أوطـاني.. إنـه يزداد ضيقاً وهواناً فكل من يكتب عن التاريخ إنسان فاشل أو كاذب أو .

قاطعني :

- على بختك الحجية لا ترضى أن ندخل بالسياسة.

- ليست سياسـة، بـل ثـوبي و ثوبـك، ذاكرتـي، وذاكرتك، الرطب والمشمش والزيتون والأرض.

قدمت لـي قـدحا مـن اللـبن مـستدركة الموقـف قائلـة:

- يمّه قال لي عباس أنت صديقته، من أين أنت؟

- من البصرة خالة.

- وعباس من الناصرية . كيف عرفتما بعضكما؟

- الذي يحب وطنه يعرف جميع أبنائه وهذه حكاية طويلة يا خالة .. ثم تغامزنا أنا وعباس، وأعتقد أنها فهمت بأننا كنا في تنظيم واحد.

على جلسة الشاي دارت الأسئلة المنقوعة بدموعها وتخلخلت موازين الحروف والكلمات وعباس يدخن سيجارةِ تلوّ الأخرى.

- إنك تدخن سجائر أجنبية؟

سألته لكنه أبعد عينه عني.

- نعم لأنها لا تعرف المتنبي ولا الفرزدق، ولا تعرف المآذن والصلوات الخمس ، وتحب الحداثة في كل شيء حتى في... ثم لبس نعاله وابتسم.

لا تنسي أنّ كل من يضربنا نحبه بقدر كرهنا له. وإلا ماذا تفسرين لبسَنا الملابس المستوردة وتدخين السجائر؟

تضايقت الحاجّة من كلامه :

- يمّه إحنا متعودين على ركب الظهور .. خلي البنية ترتاح وتنام..

قلت: - خالة أنا لست بنتاً أنا أم ولد ..و..

- لا بد أن نذهب غداً لزيارة السيدة زينب. هل توافقين؟

- بكل سرور يا خالة، بكل سرور.

في محاولتي الدخول إلى الحمام الصغير اعترضتني شبكة عنكبوت ،لا ادري كيف ضربتُ رأسي بسقفه الهابط. اقتربت خنفساء مني خارجة من بركة ماء، جفلتُ بعد أن انزلقت صابونه من فوق برميل مليء بالماء، أغمضت عيني، سمعت صوتاً يناديني باسمي، شممتُ رائحة جسدٍ تزحف نحوي، خفت، حررت عيني من الصابون كي أتبين الصوت. لم أجد أحدا ، بسملتُ:

- (بسم الله الرحمن الرحيم)

وكررتها ثالثة ورابعة، ثم أومأتُ بأصبعي على الفراغ:

- ستكون أنت السؤال الكبير أيها المرافق الوهمي.

فرشت لي الحاجّة بجانبها في الغرفة، في حين نام عباس على فراش بسيط في الصالة، وقربه منفضة سجائرٍ وفنجان قهوة و قلم ودفتر. بمجرد ملامسة رأسي الوسادة استدعاني النوم وبدت الأصوات بعيدة عني .

- 3 -

أنا أسطورةٌ لاحتراق الضوء
أدخلُ دون باب
أخرجُ دون نافذة
فقط أحرس قلوبكم.

أعرف أنكِ اسطورة، اي جدتي الغالية، وروحك تطل على النهر،لذا تعلقتُ بك من أول يوم حكت لي أمي عنكِ، قالت لي:

- أمي، جفنها الكثيف يجوب الممرات والشوارع والأزقة، وحين تمشط شعرها على الضفاف تضيئ الكواكب في السماء، فتخيلتك أجمل نساء الكون، وأعظمهن شأناً ، لذا كلما مسحني ضفدع لزج لجأت إلى القلم كي احتمي بالكتابة إليكِ.

أنا أحبكِ كثيرا، وأنتِ تحبينني وتتمنين أن أكون شجرة مثلكِ.

أخبركِ سرا:

- حين كانت تصطحبني أمي إلى النهر كنتُ أتخيل على الضفاف بعضا من خصل جديلتكِ، وكلما حلَّق طائر في السماء اقول له: جدتيء ستحميك.

ربما هو تصور الأطفال لمن يحبون،لكن بداخلي انتِ كما وصفتك أمّي تماماً.

على سطح منزلنا الكائن في البصرة، كنتِ مع القمر تنامين على وسادتي بضوئك، غنيتُ لك كثيرا في سري ورايت اصابعك تتخلل غرتي بلطف، ثم يملا عطرك المكان.

الآن لا وسادة، لا سطح، لا عطر، لامكان، كل شيئ مجرد حلم أو صورة، الا مَن يطاردني كظلي، هو وحده الحقيقة.

خُيِّل إلي أن كل من سألاقيهم أمامي يحملون مسدس كاتم صوت، وأتطلع إلى جيوبهم المنتفخة، قد تكون بها صرة نقود ، أو هدية ما لحبيبة مثلا، أو ربما شعور الخوف الذي يلاحقني مع هذا الذي يتعقبني يحملني على الشك حتى في مراياي.

هناك أسئلة كثيرة أرغب أن أطرحها عليكِ، وسرعان ما أدرك حماقتي وأعرف انه لا جدوى منها.

ها أنا أتكئ إلى خلف المقعد، ارفع ذراعي كأنني أمسك شيئاً ثميناً وأتركِكِ تقرأين الورقة التالية.

* *

في الصباح نظرت لي الحاجّة بعينين أضاءتا لي المكان ، كانت كخارطة ، تلفتُّ حولي وجدتها تشع أمومة وتنتظرني أفيق من نومي... بينما ذراعاي تطردان النوم والكسل ثم تسقطان منهكتان على صدري.

أعادتني الذاكرة إلى عادة قديمة كنت أفعلها في صغري، أضرب صدري واعمل حركة مثل حركات (طرزان)، كم تمنيت أنْ أفعلها الآن ولولا الحياء لفعلتها، رّبما هي حاجتي لصرخته وليس لحركته.

فوجئت بالحاجة تضحك بصوت عال فسألتها بفضول:

- ما بالك تضحكين يا خالة؟

لم تفلح بإخفاء ما أضحكها، لذا ردت عليه مبتسمة:

- عباس كان يفعل حركة(طرزان)حين يصحو في الصباح فتصورت لك الرغبة ذاتها.

ضحكنا معاً. وجمعتنا ألفة الشاي والإفطار الساخن نحن الثلاثة.

حين انتهينا من إفطارنا ناولتني فوطة رأسها وعباءتها و طلبت مني الوضوء كي نتوجه لزيارة السيدة. لم أرغب الذهاب إلى السيدة، لا أعرف ما سيحدث لهذا الخراب حين ألتقي، هل أشكو؟ كيف ؟ وماذا أشكو لها، هل أذكر لها مصيبتي؟ هل سأبكي؟ أتوسل، أبحث، أطلب منها شفاعة؟ وماذا سأقول؟

سامحكِ الله يا خالة، لقد وضعتِني في حرج لا مهرب منه ولا مخرج. نظرتُ إلى عينيها المتوسلتان، مسكتُ بأطراف العباءة. طرحتُ الفوطة جانباً، عدتُ إليها وكأني أحتال على ذاكرتي وعلى نفسي. ثم قلت:

- كيف تفضلين القهوة حجية ؟ وأدرت رأسي إلى عباس :

- هل عندكم بن؟

- وعندما رآني أهز رأسي وأنشق نصفين قال:

- خليها يميّ يمّه عندي كلام كثير معها.

- لكن هذه السيدة؟؟

- أعرف . اتركي السيدة لوقت آخر. سوف آخذها معي في جولة وسأعرّفها على بعض الأصدقاء هنا.

مدت شفتيها ودفعتهما إلى الأسفل بغضب واستنكار ثم صمتت.... ملأتُ فمي بالهواء وأخرجته بقوة شاكرة عباس في سرّي، فقد أنقذني من الإحراج.

في المطبخ دلني على القهوة باحثا عن عطر بمثابة الحياة له ووقف أمام مرايا الذاكرة.

احتسينا قهوتنا مبتسمين لغضب الحاجّة وتركها لنا بعد سحبها العباءة المعلقّة على الباب بقوة وانفعال.

أكمل عباس لباسه غاضباً من تصرف أمه، وجد بقعة وسخ على قميصه، حاول تنظيفها بفوطة مبللة بقليل من الماء والصابون، مشط شعره بمشط صغير، حدثني وهو يتطلع لوجهي في المرآة :

- هل أنت جاهزة؟ سنجعله يوماً مثالياً لترميم النفس.

راحت يداي تعبثان في شعري وملابسي ، مسحت وجهي الذي بالكاد أعرفه، وجدته في المرآة منشغلاً ساهيا كأنه في غيبوبة ،،،، تجاهلت منظري التعب ومشيت مع عباس، وكامرأة بلا هدف قلت في سري:

- لا يستطيع الإنسان أن يغيّر مصيره.

على بوابة الدار التقينا بسيدة ألقت التحية " هلا بالوردة " رد عباس "هلا خُويَه هلا" ...

شعرت بقلبي ينتفض، يكاد أن يخرج من القميص، ولا ادري لماذا ،هل هي غيرة المرأة من المرأة ربما!! تحول الشوارع إلى مرايا تعكسني وتعكس صور العراق. مثقفون، عمال ، كسبة، مطاعم المسگوف، والمخابز وافران(الصمّون)، وبائعو الحِلوى(الدهينة النجفية)، قلت:

- ليت بيكاسو يُبعث إلى الحياة لرسمَ أجمل لوحة بخطوطه وألوانه السود والحمر.

- أين أنا عباس.. أين أنا؟

قال:- تعالي أعرفك بصديق لي.

دخلنا دكّاناً صغيراً، وجدت شاباً وسيماً أمامه بضعة أختام وسلاسل ومفاتيح من الجلد كتب عليها بعض الآيات القرآنية.

عرّفه عباس:

- أعرفك بالخطاط والفنان سمير وحيد من البصرة أيضا.

- قلت: إذاً نحن من نكبة واحدة.

حين جلسنا طلب لنا سمير الشاي ، قال عباس :

- هؤلاء هم مثقفونا ورسامونا وخطاطونا يبيعون السلاسل بخمس ليرات.

وضعت يدي على وجهي أخفي ابتسامة قهر وأنظر إلى ابتسامةِ سَمير، التي تكابد وتجتهد للظهور من أجل ليرة أو ليرتين، ومن أجل أن أشعر أنا المرأة المهزومة برجولة قوية وقادرة، هي شهادة أخرى ربما لصورة تكاد أن تكون غير مستقرة.

أخذنا الحديث إلى مواضيع كثيرة، سياسية كعادة العراقيين حين يلتقون، وثقافية كولع الخطأ فينا، هموم كثيرة لم توصلنا لنتيجة.

هبط علينا الصمت ، تعبت من القهر، أشرتُ إلى عباس بالنهوض، وابتسمت لسمير مودعة.

- أليس لديك عمل اليوم ؟

- أجابني عباس مستغرباً :

- هل نسيت أنّه يوم الجمعة؟ أنا أملك نفسي اليوم و غدا سوف آخذك إلى دائرة الأمن لاستكمال إجراء الدخول.

انزلقنا من ضفافنا محاولين الالتفاف حول بعضنا، زرنا بقية صحبته..كانوا شعراء، سياسيين، روائيين،

مثقفين، رسامين، عرباً، كرداً، تركماناً، شيعة، سنة ومسيحيين.
قلت:- ما يفرحني أن الأصحاب هنا.
- ولمَ يفرحك وجودهم هنا؟ سألني عباس وهو ينوي أن يجتذبني إلى سنوات خلتْ.
أجبته كأنني أفضّل التعرف على الحاضر:
- لأنهم سينامون بلا خوف.
- ومن قال لك إنهم كذلك يا سيدتي؟ هؤلاء يموتون في اليوم ألف مرة . هم يعيشون الأمان المعجون بالخطر.
- وماذا عنكِ هل ستبقى في سورية؟
- وأنتَ؟
- مشكلتي الحاجّة.. إنها قيدي يا عزيزتي .
- ولمَ جلبتها معك؟
- وهل أتركهم يحرقونها كما حرقوا بيتنا وزوجتي'
- أف دخلك لا تكمل.
حاولت إبعاده عما سيكمله:
- عباس هل رأيت أحداً يتعقّبني؟
- لا.
- لقد شعرت به .. أحسست بأنفاسه.

- أنتِ تتوهمين.
- لا لستُ متوهمة..
- أنتِ هنا في الشام يا وردة العشق والعشّاق.. هوّني عليك، واهدئي، فأنت أمّ البشر والمطر.
- آو... هذا شعر يا عباس.
- هل نسيت أنّني شاعر؟
- لا والله، لم أنس إنك كنتَ الذي يحفر بأظافره بيننا. وكنت الفم الذهبي.
قال:
- واليد الفضيّة. يا ألله صرت صائغاً.
- قلت:
- نعم صائغ كلمات ومشاعر.
- قال:
- ومبدأ والتزام وحب وطن وتضحية.
- والأمان في خطر ..
قلت ذلك الكلام وأطرقتُ رأسي.
أشار إليّ لاقترابنا من إحدى مقاهي المرطبات، فدخلنا نبحث عن(آيس كريم)
تطلع في عيني:
- يا امرأة توجز التاريخ في نظرة.

- خلك من غزلك!
- أردت مغازلة أميرتي.
- لست أميرتك الآن، كان حباً من طرف واحد.
- ثم ذبحتِني من الوريد إلى الوريد بزواجك.
- لقد اعتقلوك وقتها ولم أفكر بك.
ردّ بانفعالية وتوتر:
- ولم يعتقلوا القصيدة وخرجت رغما عنهم، هربت.. نجحت وفشلوا.
- هل تسمي الاسترزاق ببيع العطور على الأرصفة نجاحاً؟ وأدباؤك الذين يجتمعون في المقاهي لمبادلة النقاش والحوار وباجترار البطولات، ثم تنتهي الجلسة بالسكر والتسكع بالطرقات يتعذبون بالسياسة التي لم يفهموها ولم تفهمهم، نصفهم مثقف والنصف الثاني ثمل، جاؤوا هنا ليغتالوا أسئلتهم ويتقيئوا وجع السائلين.
- هل شعرت يوما بأنك تجلس في مزبلة؟ وإلا ما سبب تفوق إسرائيل علينا؟ منذ فجر التاريخ ونحن مشغولون بالنساء والخمر، قاتلنا من أجل النساء والغلمان، ووعِدنا بالحور والخمور.هذه حدودنا إذاً.
- أفهمت قصدي يا عباس؟ هذا ما أقصده بالمزبلة.

- نحن طبل الفتوحات والصرخات العاقر. كل ملوكنا.. ملوك ثرثرة . هم يدرون بأنهم ليسوا ملوكاً، لذلك استعبدوا شعوبهم وخلّدوا هراواتهم ليروا الدموع في عيوننا. هل فهمت لمَ يمزقون أولادنا وأفكارنا ونساءنا؟

- كي تنتصر أمريكا علينا. كم مسيحاً صُلب لحد الآن، وكم حسيناً قُطع رأسه؟ كلنا زينب وكلنا أسرى بساتيننا، عيون نسائنا، شرفاؤنا، جعلونا أسراباً مهاجرة هتلر هَجَّرَ اليهود من أوروبا، ونحن العرب نسجد لهم. نبارك لهتلر بإعادتهم إلى أرضنا، ونقول أجمل ما في العربي حياؤه وكرامته.. منذ أن كنت طفلة وأنا أحلم بحمامة بيضاء تحلق فوق سمائي، أن أزور عمّان وسوريا ومصر دون أن أُحجَز في المطار، وأدخل وأنا بيد دون أصابع ، أرغب أن ألوّح وأكتب اسمي، أنْ أعدّ لهم أسمائي.لا أقدر، كيف أعدّ دون أصابعي.

نقل عباس عينيه يمنة ويسرة، ثم نادى الصبي:

- عصير من فضلك.

قلت : لا، أريد(آيس كريم) مرة ثانية .

- واحد عصير، وواحد(آيس كريم).

دخل ثلاثة شبَّان، اثنـان نحيلان جدا كادت أن تخرج وجنتاهمـا مـن الوجـه، والثالـث سـمين أكـرش شـعره أسود طويل ونـاعم. حيَّوا عبـاس وابتـسموا لـي محيين، سألت:

- من هم؟

قال:

- السمين رشدي الكاتب.

قلت: كاتب ماذا؟

- كاتب قصة قصيرة، والاثنان مجرد أصدقاء.
- عباس دعنا نخرج من هنا.
- والطلب!
- بعد أن نتناوله نخرج.
- لماذا؟
- كلهم يأتون هنا يتصيدون ولا يخطئون.
- ماذا تقصدين؟
- - بعضهم تربى في أحضان الحزب، أو فـي أحـضان المخـابرات، وبعـضهم تبـرع لـسرقة ابتساماتنا من أجل المال والجاه.

- ماذا ترغبين على الغداء؟ ثم أشار بيده كـي أسكت.

- أي شيء.

أجبته وحملت حقيبة يدي ووقفت انتظر الخروج.

- سأدعوكِ على أكلة سمك نهري، سمك فراتي.

ونحن نهم بالخروج دخل رجل في الستين واحتضن عباس بحرارة، حتى كادت الدمعة تطفر من عينيه.

قدمه عباس إلي:

- هذا العم أبو وفيق.. و

أسرعت في القول:- اسمي زينب.

لمحت الدهشة في عيون عباس وابتسم مستفسراً، ثم تدارك بسمته وسؤاله واعتذر من العم أبو وفيق بأننا كنا ننوي الذهاب إلى البيت.

- أتحب أنْ تتفضل معنا؟

- لا شكراً . طابت أوقاتكما. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

سرنا صامتين ونظراتنا إلى الأرض، تعثر عباس في حجر، صحت:

- اسم الله!

- أخيراً نطقت يا زينب، لم أعرف أن اسمك الجديد (زينب).

- أما تراني مكللة بالسواد.

- ما هي نهاية هذا السواد؟ أنتِ مازلت صبية.

- أنا حزينة على أمة كاملة. على وطن وشعب وأرض على..

- أي بس. بس. دوّختنا، بشعاراتك، بس، دعينا نشتري سمكاً.

اشترينا سمكة نهرية، ثم ذهبنا إلى المخبز وشويناها واشترينا معها خبزاً وباقات خضار ولوازم السلطة.

عدنا إلى البيت تسحرنا رائحة السمك. رحبت بنا الحجية التي أعدت بدورها لنا مرق الباميا والرز والمخلل.

- 4 -

لمَن أترك الروح؟
أيتها الجهات....
البنادق أحزاني.

الجدّات لهن رائحة الخبز الطازج، عرفتك من رنة جرس الباب، نعم عرفك قلبي ورأتك روحي قبل دخولك وانت تحملين هدية عيد ميلادي، جئت تباركين لي مرتدية ملابس فضفاضة بيضاء، وعلى راسك تاج من الذهب الخالص، توقعت انك ترتدين " الشيلة" والعباءة مثل أمي، سالتها لم توضح لي بالجواب اليقين، فقط حيتكِ واعطتك صدر المكان.
حتى اصابعكِ رحت أتابعها ،بهرتني خواتمك المصنوعة من الفيروز النقي،ورقة الاصابع الخمرية، وقبل أن يقدم أي أحد هديته لي رفعتِ التاج من رأسك ووضعتيه على رأسي بابتسامة عذبة .

كنتُ مذهولة، وصحوتُ بذهول أيضاً حين اكتشفتُ أنه حلم جميل.

جدتي.. أنا لا اسجل تفاصيل مرت بي في رسالتي، إنما استدعي اللحظات كلها وأضعها بين يديك، منتظرة منك الجواب،أحاول أن اتجنب أشياء كثيرة قد تدوخك وتصيبك بالغثيان،وأكتفي بالسؤال:

- ألم تستدرجكِ رسائلي إلى الظهور لي ولو مرة واحدة؟

لا أنتظر الجواب السريع ، فقط اضع بين يديكِ الورقة الرابعة.

* * *

التسكّع في الطرقات المتسخة المحفورة حيث عثرة هنا و ورائحة نتنة هناك يطلق الاستذكار إلى شوارع البصرة القديمة.

تجّولنا بأزقة ضيقة، بيوت التصقت ببعضها، تراصٌ قادني إلى استحضار العلاقات الجميلة والجيرة النقية، مما جعلني أتخيلِ أن الأنـّات كانت مشتركة والأفراح تـُقتسم على أفراد الشارع فرداً فردا.

استوقفتني واجهة بناية قديمة اتسخت بدخان الزمن، كثيراً ما يحضر الأصدقاء الحميمين حين أرى هكذا أبنية وأتذكر العفوية والتلقائية. أما الملابس المنشورة على الحبال الممتدة في "البالكونات" فهي لوحدها حكاية، زوجان يحتسيان القهوة، كلاهما كان يبحث عن القلب الذي ينقصه أو الذي أضاعه، انتشرت في المكان أصوات بائعي الفاكهة وجمـّلت المكان ، ففي سوق السيدة زينب لا ينام الناس.

البائعون يتناوبون مع أبنائهم كي تبقى الدكاكين عامرة. دخلنا إحدى البنايات، صعدنا السلم إلى الطابق الثالث، فالشخص الذي دعانا لحفلة عشاء يسكن السطوح، ونحن نصعد السلـّم القديم عرفنا أن المالك لا ضمير له. غرفة متواضعة بحمام في السطح ، علب بيرة، أصباغ قديمة مرمية بكراهية للوضع، بقايا حديد، براز قطط، علب كارتون فارغة تبحث عن الحقيقة الناقصة.

رغم ما شاهدناه من دونية لإنسانية مفقودة، ارتدينا بساطتنا وافترشنا السطح.

في الظلام كنا عشرة ضيوف ومضيّفنا. من حسن الحظ أني أكره الخمر، لكن بعض النساء شربن، و بعضهن جاملنني وشربن الكولا، دارت الأحاديث السياسية كالعادة، لا تخلو جلسة عراقية من السياسة.. تغنّى بعض الشعراء وبكوا، ثم غنّوا أشعارهم وبكوا، وسكروا وبكوا ،ورغم أني كنت في وعيي التام، لكني سكرت بدموعهم ، وكلما ازددتُ توازناً رعشتُ وتوسلتُ إلى قلبي أن يهدأ ، وباركتُ عيني حياءها أمام هذه الدموع الغزيرة.

نطّت على السطح قطة بيضاء شاردة من مطاردة قط على السياج واقتربت منا حين شمّت رائحة اللحم ، رمى أحدهم لها قطعة ، اقتربت منه ومسحت ذيلها في جانبه ، مسح هو الآخر رأسها بإطراق أصابعه قائلا :

- جميلة هذه القطة أحسدها لأنها لا تعرف الثقافة ولا السياسة، لذلك هي حرّة، ملك نفسها ووحشيّة تجاه من يطاردها، ثم هدر كبحر:

- أيتهـا القـصيدة العـصية أيـن أنـتِ؟ أيـن همزتـاك؟ دعيهـا تبـارك ضـريح النـصوص، نحـن حبـالى فـي ليالينـا.

ابتسم خالد ذ واللحية الكثيفة وتحسس بطنه:
-الحمد لله أنا لم أحبل، كل القوانين توضع قبل الحمل، بعدها يتكرر العام نسخاً ممسوخة.
- أجابه عباس :
-هل تعرف لماذا لم تحمل؟ لأنك ولدت خارج وطنك ، لو ولدت في حضن أمك لحبّلوك رغماً عنك.
صاحت زوجة لصديقة زوجها، حين لعبت الخمر في رأسه قرصها فأطرقت خجلاً من الحضور.
طلب عباس من السيد هاشم، هكذا دعاه، أن يعطيني توصـية لـدائرة الأمـن، فغـداً موعـد مراجعتـي دائـرة الأمن. كتب لـي السيد هاشم التوصية مشكوراً، وقال لي:
- أنا في خدمتك، خبرني ماذا سيحدث؟

-5 -

حكمةٌ مَن؟
أيها الشتاء..
معطفي الجميل.

بشكل مفاجئ كلمتني صورتكِ المعلّقة على حائط غرفة أمي التي ورثت صورتك من جدتها أيضا،أعرف أنك جدَّة الجدَّات. لستُ أدري لمَ أراسل جدَّة الجدَّات كلهن وكأني أنطق دمي ليكتب لكِ.
نعم كلمتيني ، لاني تفحصتُ عينيك جيدا لأعرف انك حقيقة وليست تهيؤات، شبَّهني بك أغلب الاصدقاء، الشموخ ذاته ، الحواجب الخفيفة، العينان العسليتان، والمنخار المرتفع بكبرياء.
مررتُ أصابعي على وجهي لأتأكد أنهم على حق، فعلا هناك شبه كبير بيننا،وحين أطلتُ النظر في عينيكِ انتشرت تفاصيلك في المكان ، كل الأماكنِ لها وجهكِ حتى احسستك روحي المعلّقة على الحائط.

دمدمتُ بهمهمة: - كيف سأكمل رسائلي وروحي معلّقة على الحائط؟
تبسمتِ لي : - أنا هيئتك الأولى حفيدتي فلا تأخذك الأسئلة وتتركك تكتبين الأفعال الناقصة.
ثم أكملتِ: - أعرف أن شيئا غير عاديا يرافقكِ ، وأنك مبللة بالألم اللذيذ وترتدين الطعنات الأنيقة،ومع هذا اثق بقوتك لانك ابنتي.
استغربتُ كلامك: هل الطعنات أنيقة جدتي؟ وكيف يكون الألم لذيذا؟
أخرجتِ يدك من الإطار ، مسكت بيدي ووضعتيها على صدرك جهة القلب: - هنا.. من هنا ستعرفين أجوبة أسئلتك.
وبشكل مفاجئ أيضا.. تجمدت الصورة .
وفجأة ايضا، تجمدت الكلمات في فمي، خطوت خطوة إلى الوراء، لحقتها بأخرى في تراجع حتى كدت اعثر بكرسي خلفي،وجدتُ نفسي أجلس على السرير أتصفح صورة أمي وهي طفلة بحضن أمها، قضيت فترة طويلة بين الصور والتطلع إلى صورتكِ على الجدار، مالت يدي اليمنى إلى الأسفل ، تركتها متدلية قليلا مسترخيه بما لا اعرف سببا لهذا الاسترخاء،

بعدها نهضت ، فتحت دولاب ملابسي ، لاحت لي التنورة الحمراء القصيرة التي ارتديتها وانا في سن المراهقة. . أمي هي من احتفظت بهذه التنورة ربما لها سر في ذلك لا أعرف بالضبط ، خاصة وصيتها لي: لترافقك هذه التنورة اينما ذهبتِ . أغلقتُ الدولاب وتناولت الورق والقلم لأجعلك تستمرين في قراءة رسالتي .

الغريب جدتي،، وأنا أتطلع في صورتكِ لم أشعر بالانفاس التي تلاحقني وتخترق أذني، كما لم ارتعب من احتمال وصول الضفادع لي في هذه اللحظة بالذات.

* * *

تهيأ عباس باكراً وعلى عجل طلب مني أن أهيئ نفسي لأننا سنقضي اليوم كله في الدائرة.

استعجلت في ارتداء ملابسي وتناولت شاياً على عجل وخرجنا ننتظر سيارة أجرة ،(نفرات).

صعدنا في الصدر أنا وعباس وثلاثة رِجال جلسوا في الخلف. ... أين أنا ذاهبة؟

ولماذا؟ لي موعد مع شخص آخر أعطاني عنوانه واليوم الذي سألاقيه فيه؟

ولماذا أكذب على عباس وعلى الأخ هاشم ووساطته... هل أريد أن أختبئ وراء السنوات؟ أم أريد مواجهتها؟

عصفت الأفكار في رأسي وبات الصراخ والضجيج يخلقان لحظات قاسية، وأنا أصبحت ممتلئة بمَن يتعقبني ويعد خطواتي.

أنفاس الركاب الكريهة تطلق روائحها على شكل دوائر تلتصق لزجة ،،الصفعة تأتي من الخلف وعلى شكل أنفاس لها رائحة الجيَف، يعني أنني في مرحاض أدفع أجره كي يقلني حيث أريد.

الأوقات تعصرني بعدد فراغها وتتركني أقفز من فكرة إلى فكرة ، ومن ظن إلى ظن ، إذ لم أنتبه إلاّ ونحن قرب المبنى .

اتجهت صوب الزحام وقد شارفت العاشرة صباحاً، قرأت الشحوب المرسوم على الوجوه التي كانت تتطلع في ملامحي، وجوه مرسومة بالحمّى، وأجساد منهكة إلاّ من صرختها .

حين لوحت للرجل الذي في باب الغرفة الصغيرة سمح لي بأن أرد على أسئلة ضابط يجلس قرب طاولة صغيرة وأمامه دفتر كبير، سأل وأجبتُ. فسمح لي بدخول الباب الكبير.. مشيت حتى وصلت غرفة أخرى وبيدي ورقة أخرى أعطيتها للرجل في الغرفة، فتش حقيبتي اليدوية وسمح لي بالمرور، ثم أشار لي أن أقدم معاملتي من الشباك. لم أذهب للشباك كما أخبرني هاشم، بل صعدت للطابق الثاني وسألت عن أبي زياد ، قالوا لي هذه غرفته. رجل أكرش قصير تقف أمامه بنتان جميلتان. سألت:

- حضرتك أبو زياد؟
- أي هيك بيئولوا .

دون أن ينظر لي، فقط واصل الكتابة. رفع رأسه بعد ربع ساعة وكلم الفتاتين وتجاهلني. خرج، ثم غادر وخرج ثم عاد ثانية.

- يا أخ أهذه الورقة لك؟
- أي من بعثك؟
- السيد هاشم..
- حاضر تعالي معي.

أخذني إلى غرفة المسؤول الكبير، وقدمني له بأنني صديقة للسيد هاشم.

رحب بي ترحيباً جميلاً. وطلب لي شايا، ثم بادلني حديثا ليناً وجميلاً، وتكلم بكل أدب واحترام، ثم اتصل تلفونياً بشخص آخر وأمره أن ينهي معاملتي ثم ابتسم قائلا :

- نحن في خدمة الشعب العراقي أنتم في قلوبنا. وإذا تأخرت المعاملة تعالي إليّ.

انحنيت عليه وقلت له:

- شكراً سيدي على لطفك، ثم نزلت.

وإذا بي أمام نافذة وطابور إلى نهاية البوابة، فشعرت باستحالة الدخول.. اتخذت الجانب الآخر من الطابور واقتربت من الباب، حين سألت عن السيد طلال صاح أحدهم :

- أنا هو أنت صاحبة التوصية.

قلت : نعم.

فأمرني بالجلوس قربه ريثما ينهي معاملتي.

كانوا ثلاثة موظفين. أحدهم قرب النافذة يتولى استلام المعاملات ويناديهم ساعة انتهائها، والآخران عليهما

تقـع مهمـة الاسـتجواب واسـتكمال الإجـراءات، فالـذي أجلسني قربـه هو طـلال، كـان وسيما وجميل الملامح ،بدت علامات الغرور عليه، كان يرتدي زياً مدنياً، أمـا الأصلع الذي قرب النافذة فكـان دميم الشكل ،لا يتقن الابتسام، توسم بالوحشة ولوث هواء الغرفة بصياحه علـى الحضور.. أمـا الثالـث فلـم أره يبتسم قـط ، فقـط يكتب بعد أن تـُحوّل لـه المعاملـة من الأصلع ويسأل باقتضاب كل من يدعوه الأصلع بالدخول.

دارت أحاديث بيني وبين الشاب الوسيم طلال.

قال لي: يبدو أنت مهمة وإلا لماذا يوصي بك الأستاذ؟

قلت: متى سأخرج من هنا؟

قال: الجميع بعد الساعة الثانيـة. أمـا أنت فبعد ساعة إن شاء الله، لأننا نبعثها للرئيس وننتظر متّى يعيدها إلينـا.

سألته: طبعا لا يمكننا السؤال عنها؟

أجابني: أنه الرئيس.

قلت له: سأطلق على نافذتكم هذه شبّاك الرحمة، وحين سألني عن السبب، بيّنت بأني تخيلتها هكذا.

كـان يـتكلم بتبجح أحيانـاً واعتـداد بـالنفس وغـضب فـي أحايين كثيرة.

منظر المراجعين في الشمس يثير الشفقة وخاصة كبار السن،،، كادت أ ن تهلك إحدى العجائز لا لقلة ماء أو أكل، ولكن لقلة الضمير.

- لمَ تتركون الناس في الشمس؟

- ردّ وهو ينفض عنه السلوك الرصين: - إجراء أمني.

ثم رمى ملفاً على الأصلع. تطلع في الملف ورماه على الرجل الآخر.

في سري أكلم نفسي، هكذا عودنا الوضع الأمني، فالكلام جهراً يعني الموت:

- هل تلوا القرآن؟ هل كانوا أطفالا؟ ألهم أمـّهات وأخوات وزوجات وعشيقات؟

هذه الغرفة سلطة بعينها، دولة مصغـّرة. كيف أدنو منك يا نفسي والذل يصاهر نفسه للنيل من ذل آخر؟ أشد ضراوة من عين ضابط يحتقر امرأة مسنـّة، تتنزه عيناه بالحاضرين. تحتذم بوطن مقيد وذل تعب..

دخلت تلك العجوز متوسلة . كان دخولها الغرفة تجاوزاً. فصرخ الأصلع لهذا التجاوز. توسّلته ورجت

معرفة ما يحدث، أخبرته بعدم قدرتها على الوقوف والانتظار، صاح لها الشاب الصامت دائما:

- معاملتك عند ذاك، وأشار إلى الأصلع. وحين اقتربت من الأصلع ، مد لسانه على طوله:

- من قال معاملتك عندي ابحثي عنها هناك .

أخذت تدور من طاولة إلى أخرى تلهث وتتباطأ بقدمين متورمتين ، وانتظار يضلل أبصارنا سعياً وراء قلب يتذكر رحمة عابرة، ويرتعش ولو مرة واحدة أمام نظرة عذراء.

أنا على يقين بأن المسؤولين لا يعلمون بما يتصرف به صغار الموظفين. فقد كان المسؤول كريما شهما ولو نزل مرة واحدة وشاهد هذه المعاملة لما رضي، أو ربما السمكة تتعفن من رأسها كما يقال في اللغة الدارجة.

الأكراد والتركمان، يتفاهمون بلغة متعثرة، وسؤال مفضوح يبحث عن إنسانية ضالة .

لا مناص من الإشارة بالأيدي لشرح أو تقريب أجوبة لاستفسارات تتحلى بالشتائم والاستنكار دون اللجوء

لشخص يتقن اللغتين للخلاص من هذا الكابوس رغم أنهم كثر.
ساعتها رأيت شخصاً يتطلع فيّ، خُيّل لي أني رأيت ملامحه. لم أتبين ملامح رجل أم امرأة. حاولت العثور على طلّسم يهديني ويحرسني مني ومن ثورتي المجنونة، إذْ كنت أسيرة أنفاسي المضطربة وصبري الذي طاش منّي.
كان الوقت ظهراً والمروحة الصغيرة لا تفي بالغرض، والمتأففون من زخم المعاملات وزحمة المراجعين ناسين أنه بعد أيام ستمتلئ جيوبهم بحصاد هذا التذمُّر.
هي السنون العجاف. ضابطان يتواعدان على وليمة وسهرة ماجنة، وثالث يحك بطنه، ومن أجل مغامرة ليلية يفتل شاربه.
احمرت الوجوه واتقدت من تأثير الشمس الحارقة، وجوه تؤدي طقوس الظلام متوجهة لقِبلة شباك الرحمة، وتراقب بحذر المسافر الغريب.. بعد أن وعدتهم بأني سأكتب عن شباكهم هذا، ابتسموا فرحين وتمنوا أن أذكرهم بالخير، فقد أنهوا معاملتي على أحسن وجه.. قلت لهم:

- لا ذنب لكم، سأذكركم بالخير، لكني سأكتب بيدين باردتين برود وجوهكم، فما هذه الغرفة إلاّ دولة صغيرة ومملكة عرش حامض.

قال الأصلع: -ألا تخافين؟

- أتدرين على أية أرض أنت؟

- قلت : أعرف أنكم طيبون ولا أخطاء لي ولكم لكنه الروتين الموروث ، وشكرتهم على كل شيء، لكن في سري قلت لا يخيفني أمثالكم؟

جرجرت تعبي بأذيالي والريح القائظ تنام على أكتافي وتفرش راحتيها ، تمنيت لو أرمي نفسي في نهر بارد، بينما كانت عيوني تبحث بين المارة عن عباس الذي تأخرت عليه،فاستوحشت الفراغ والهواء ونفسي. ووقفت حائرة، مسحت عينيّ وأغمضتهما من العرق، مسحت رقبتي،أستجدي برودة هواء قائظ، رأيت عباس يلّوح لي بيده من بعيد،وقفت مثل خيمة خذلتها الأوتاد وظل صوت آخر يستدعي اسمي، ثم يهرب بمجرد أن ألتفت.

رجع عباس منتعشاً بصلاة روحه، وكمن يملك ثروة قلبه تساءل:

- هل تأخرت عليك؟

- آسف جداً، وجدتك تأخرت فقلت أنجز عملاً.
ثم استطرد:- بالمناسبة، نحن مدعوون لدى هاشم الليلة.

- 6 -

يا صاحبي الر.

حي..

... ل

احتسيني.

وأنا في الطريق اليوم رأيت احد عشر ضفدعا يتهامسون، وتوهمتُ أن الذي يلاحقني يقول لي:

- هل أنتِ قوية إلى هذه الدرجة؟ هل أنتِ فعلا قادرة على التحدي؟

كنتُ ابصر لكِ فقط واسمع كلساتكِ ترن في أذني.

أجبت صوت الذي يلاحقني:

- ما ينبغي أن اقوله لكم هنا في صدري، ببساطة جداً ما أنتم سوى مخلفات خنازير.

غضب الصوت وثار:

- ويحكِ ويحكِ ستعرفين في يوم ما أن حتى البنايات الشاهقة تتهدم.

خرجت اشتري دفتر رسائل فقد أتلفتُ البارحة الأوراق المتبقية في الدفترِ ومزقتها، لم أكن أعرف بالطبع انك ستفاجئينني عند باب الدار، رأيت الأحد عشر ضفدعا الذين تهامسوا عني مخنوقين بحبل من النايلون، أدركت ساعتها انك من فعل هذا ، لانهم سيتناسلون حين يدخلون داري وينشرون دبقهم، لذا قمت بخنقهم وخنق المحاولة.

لا أدري، فأنا أبرر اخفاء العثرات من طريقي وأرجع التبرير اليكِ لعلها سطوة حبي لك.

أزحت الجثث الدبقة ودخلت ، لكني صدمتُ حين وجدت ضفدعة بحجم الكلب متربع على الأريكة بعينيها الجاحظتين تشير لي أن أصمت.

صمتُ فعلا ، ليس هيبة لها أو خوفا ، بل لانني تأخرتُ في كتابة الورقة السابعة.. لم أتصور أن تصلْ بها الوقاحة لخطف القلم من يدي، في محاولة واهية مني حاولت افلات يدي من قبضتها شددتُ بقوة على اصبعها لكنها كسرت لقلم.

ابتسمت ابتسامة المتشفي:

- لي اقلام كثيرة سأكتب رغما عنكِ.

جدتي... ما الذي سيحدث لك حين تبدأين بقراءة الورقة السادسة؟

***

شقته مرتبة وحضارية. صالة حجمها متوسط، بكنبة كبيرة واثنتين صغيرتين ، على البلاط سجادة صغيرة وطاولة مستطيلة عليها مزهرية جميلة بورود بيض. طاولة الطعام بأغطيتها الجميلة. صُفت الكراسي بطريقة خاصة لتتيح مجالا للحركة، ستائر من القماش المشجر يتلاءم والكنبات. لوحات صغيرة وكبيرة لفنانين عراقيين . لوحة طويلة في وسط الحائط تظهر فيها امرأة عارية وستار خفيف على عورتها. جنبها زجاجات عطر ورجل عار أيضا.

وقفتُ أمام اللوحة أتطلع وأتخيل أنامل الفنان الذي ترك كل شيء عاريا ما عدا صندوق خشبي مقفل كأنه استوحى ذاته ساعة الرسم.

حين دخلت وعباس كان ثلاثة من الأصدقاء قد وصلوا. تحادثنا وتبادلنا التحيات في انتظار الجميع.

قدم هاشم الويسكي بالثلج والعرق لعبّاس وخصّني بعصير البرتقال قائلاً:

- هذا للأطفال.
ضحكَ، وضحك الجميع ، شكرته على وقفته معي، كان يتأمل صمتي أمام اللوحة، وحين شكرته شعر بالحرج، تلعثم وهو يجيب:
- هذا واجبي تجاه الأشراف.
مسكتُ قدح العصير واقتربت أكثر من اللوحة أتطلع للمرأة العارية والرجل، وأحاول أن أجد مبرراً للصندوق الذي لم أجده زائداً في اللوحة، لابد وأنّ الرسام تعمد تركه مقفلاً.
قلت: هذا شعر، وهذه قصيدة متكاملة .
وقف هاشم بجانبي:
- نعم المرأة دائماً قصيدة.
رغب رجل أن يتفلسف أمانا:
- لا يا سيدي لا علاقة لها بالقصيدة. أليست السكين مؤنثة والحجارة مؤنثة كذلك.
تذمرت من كلامه الذي يبتز المشاجرة خاصة وأنا أنثى هنا. فقلت له:
- والذين كتبوا التاريخ ذكور، وأصحاب السياسة ذكور، والذين جعلوا العصمة في أيديهم ذكور، وجعلوا المرأة تركع لهم بعد الله ذكور أيضاً، والذي اخترع

القنبلة ذكر، والذي قال إن المرأة عورة ذكر، لكن الموجة أنثى، والسنبلة، والفراشة والأرض، والسماء والنخلة والورقة أيضاً أنثى.. كل هؤلاء يتمتعون بالأنوثة، ونسيت أن أخبرك بأن الذي اخترع زواج المتعة والمسيار ذكر، هل أكمل؟

قال: - عفوك سيدتي ما قصدت إيذاء أحد وكل ما قلتِه حقٌ وصحيح ولسنا في عصر معركة النساء مع الرجال.

قلت:

- للأسف الشديد مهما تثقفتم، تبقى حدودكم ضيقة، تتسع الثقافة وتضيق الرؤيا.

قال هاشم:

- السواد يليق بك.

لم يستسغ عباس المجاملة فوقف متحدياً:

- أهذا غزل؟

- لا والله يا عباس، فقط رغبت في كسر حدة النقاش.

مسحتُ أثر العصير من شفتي:

- إذاً،،، تكلموا في كل شيء ما عدا السياسة أنا متخمة إلى هنا، وأشرتِ إلى رأسي.

- قال عباس:

- دعونا من السياسة والمرأة إذاً.

تحفظ هاشم وعض شفتيه، ثم وضع كأسه بقوة على الطاولة:

- لا يا سيدي أنا كلي للمرأة والحب، هي القِيلة. فالقِيْلة أنثى. وأشار برأسه إليّ.

ثم استطرد:

- حب المرأة ثقافة ، صحيح أنّ الرجل اخترع ورقة الطلاق، لكنه بدون المرأة لا يساوي قرشاً. صفقتُ له بحرارة، وشربتُ جرعة من العصير.

رن جرس الباب، وإذا بالأصحاب يدخلون دفعة واحدة، تحيات وسلام وتقبيل، وقال هاشم:

- بالله شاركونا نقاشنا.

- وقف أحدهم دون حراك:

- ها، هَمْ سياسة.

- قال هاشم:

- سياسة أخرى اليوم.

أعطيتُ مجالا لأحد الأصدقاء وزوجته بالجلوس قربي، وضعت ساقاً على ساق، وقلت:
- نزار قباني يقول إن المرأة أو الأنوثة هي السلطانة الوحيدة التي لم أقاومها، ولم أكتب ضدها. وبالمناسبة هو الذي دائماً يصف نفسه بأنه المحبوب من النساء وهو المعبود.. ثم غصنا في السلوك الفطري والمكتسب، القديم والجديد و الأغاني المصبوغة بالحزن العراقي ،غرقنا، وانتعشنا بالحديث عن السينما والمسرح.
حين تناولنا وجبة العشاء قالت الزوجة التي أجلستها قربي: هذه أكلة تاريخية. أجابها الجميع: - نعم، سلمت يداك يا هاشم. شعرت بغصة في حلقي. التاريخ وصل هنا بلحم وثريد، من المسئول عن هذه الشهادة، نسرق باسم التاريخ، نأكل باسم التاريخ، أو قد يحدث أفظع من هذا، صار كل ما في الكون تاريخاً، الدرهم، القمار، الشراب، اللواط، فكيف نربح نفوسنا يا ثريد اللحم؟
- أوه زينب، حتى اللحم تؤوّلينه؟ هذا ما أراده هاشم .
- خذي! قدم لي عباس قطعة لحم طرية.. خذي هذه تغنيك عن كل التاريخ الماضي والحاضر والقادم.
أردت أن أضيف، لكنه أسكتني، رفعت يده وقلت: لو

أكلت هذه سيصيبني الإسهال فمعدتي مربكة
ضحك هاشم قائلاً: إسهال تاريخي!
فضحك الجميع .
بعد أنْ انتهينا. طلب هاشم أنْ نلعب لعبة بعيدة عن السياسة، وشرح لنا، هو يسأل ونحن نجيب ومن يربح يشرب كأس ويسكي دفعة واحدة.
قلت:- هذا عقاب وليس ربحاً!
قال: - لا خيار! إذاً فلنبدأ.
سألني:
-من الأفضل الملك أم الضفدعة؟
-أجبتُ:الضفدعة، أردتُ أنْ أفسر،قال: هذا يكفي، الجواب باختصار.
سأل عباس: من تحب أمك أم الوطن؟
احتار عباس في الجواب، سكت ثم أردفَ قائلاً:
كلاهما أم وكلاهما وطن.
ثم تعاقبنا على الأجوبة واحداً بعد الآخر.
- كاظم الساهر أم ياس خضر؟
- الغربة أم الموت داخل الوطن؟
- هل أنت ذاهب أم قادم؟
- هل تحب أمريكا أم الدجاج؟

ضحكنا جميعا من هذا السؤال، وقف فرحاً وشرب كأس وسكي دفعة واحدة. وقال: أنا الفائز. كان يلعب بنا. أو بالأحرى يريد أن يبعد أفكارنا عن حدة النقاش والسياسة في كل شيء. . لكني لم أستطع . قلت له: لاتحاول، فالسياسة في دمنا، أليست هي التي جمعتنا الآن؟ وهي التي هجرّتْ أبناءها ومبدعيها وأبطالها وعلماءها إلى دول الغرب.أليست...؟

- بس .. بس. بس قال عباس، وأضاف:

- كلشي ولا تفتحوا جراب زينب على السياسة، فزينب لو شاهدت دودة تمشي ، تقول هذه دودة سياسة. تجشأ عباس وضحك : (تريوعة) سياسية .

لا يُعطى السر لأيٍ كان، وعباس كفء لمهمة مثل التي سأوكله إياها.

صخب الطرق والبيوت الخرساء والأنوار معتمة يلاحقني، كل الذي صادفتهم غرباء. حتى خيالي قزم.

دخلت مع عباس الدار، وكانت والدته نائمة، فمشيت على رؤوس أصابعي . ومددت جسدي على مندر مفروش على الأرض، لا أعرف من أنا، القلق يتحدث بمجانية معي. كدت أسمعه يخاطبني، لم يكن خيالاً. هيّأ لي أني رأيت شبحاً يخطف أمامي، فركت عينيّ

وفتحتهما، شعرت بشيء بعمودي الفقري.بعدها سمعت خشخشة أضلاعي، كأنها في ريح .

الليلة ليست ككل الليالي، لابد أن أخروج من حالتي هذه و أجد الكلام، لكن صمتي كان أكثر فصاحة ومطر الأهداب سوّر وسادتي فكتمته حتى لا يشعر أحد بي.

- 7 -

إن قلتُ الشجر، خسرتُ
إن قلت الطير، خسرتُ
إن قلتكم خسرتْ

لمَن ذاك المقعد الخشبي؟
أتدرين جدّتي أنكِ تشبهين الشجرة الكبيرة التي في الجهة المقابلة لبيتي؟
ككل صباح استيقظ من نوم يشوه راحتي ، افرك عينيَّ من الكوابيس وافتحهما باحثة عن أحلام اليقظة.. دون رنين منبه أصحو، فالفزع هو الرنين وكذلك الأصوات المكبوته من هول الكوابيس.
عيناي وقعتا على طول الشجرة المنتصبة وكأنني أراها للمرة الأولى، فجأة احسستُ بقلبي ينتفض بقوة حتى كاد يخرج من صدري،صوتُ خفي يشبه المناجات حاصرني ومعه صوت يهمس هِمساً.. بعدها توالت الهمسات.. الشجرة كلها أصبحت عيوناً تحدّق بي ،

أذهلني جمال نظراتها ، ذلك الجمال الذي له رغبة الاحتضان.

كنتُ فعلا بحاجة إلى الاحتضان خاصة حين يأتي من شجرة تشبهكِ، انهالت عليَّ العيون تقبلني وتشمني،عيون على شعري، عيون على راسي، عيون على صدري، عيون، عيون، عيون، حتى تقمصتني وصرتُ أنا عينا أرى نفسي فيها.
لم اعرف بالضبط.كم استغرق عناقنا ، وكم أخذنا من الوقت لنمتلئ ببعض.. الألوان تنسحب، والأخضر يمليل إلى الاصفرار.. أين العيون؟ أين العناق؟ اين اللهاث؟
وبقسوة لا إرادية تطايرت وريقات الشجرة الصفر وتركت المكان الأصفر خاليا إلا من الوداع.
في بؤرة صمت المجهول،حملقتُ في الوجوه وجدت السحنات خاوية،بقيتُ أطرح على نفسي أسئلة وأجيب،وإذا بي أواصل مسيرتي الحمقاء .
رجعتُ إلى الأريكة مددت جسدي لأمارس اللعبة من جديد محاولة اصطياد إغفاءة من الوقت .

كسائر الناس لي ريبتي وأوهامي، ولكني لستُ كسائر الناس لأنني أخشى الفرح المجهول الذي يتقرفص غباره على شاشة الحياة.

انظري الآن إلى الورقة السابعة جدتي، لعل لهفة عابرة تعيدني اليكِ.

اقسم بحق جدتي، احسستُ بطعم عصير الضفادع يملأ فمي حين انهيتُ الورقة السابعة.

* * *

طيور الصمت تحلّق فوق رأسي، ربما اختلاط الأيام بالساعات، أو ربما أرتجي خطوتين نحو السفر. رشقاً تقاذفتني الجراح، صافحني جمر المواقد، اشتعلت المهود بحليب أسوَد، سحّ دمي امتدادًا لكفني، أصغيتُ إلى قلبي لعلي أعثر على جواب بين أوردته، الليالي جراء تنبح بتودد لوقت تجاهلني. ندهت أحشائي أن تستفز غرائزها، وشعرت بميل للتقيؤ ، سارعت المضيفة بإحضار كيس لي ، فأومأت لها بالرفض.. توسعت ابتسامة رقيقة على شفتيها وقالت:

- هل تحتاجين لشيء؟

- تـصورت أن لا مـسافة بـين معـدتي وإفـراغ مـا بداخلها، تكورت تقاطيع وجهي.. فتحت حقيبتي لتناول منديل ورقي وبسرعة البرق قُدم لـي قدح مـاء، وحبـة مهدئ، ثم أومأت لكيس في خلف المقعد الذي أمـامي كـي أتقيـأ بـه إن احتجـت لـذلك ، اسـتدارت بردفيهـا وانحنت قليلا :

-تفضلي، مازلنا على الأرض .

ربما يصبح النهر لهبا، قامتاً بشكلها البهي، أو ربمـا لـه حلم لم يتحقق. من منـّا حلم الآخر؟ مَن ودعته الطيـور أو ودعها؟ أي شجر لـه أصلنا؟ مَن منـّا ذنـب الآخر. التقائي كارتحالي، أمواجه تهتف باسمي واسمي يهتـف موتـا.

أسندت رأسـي إلـى الشباك ، فمرت سماء البـصرة ، الطيارات الورقيـة وعيون النخيل الخضر، حزينـاً مرّ الجـرف بقربـي، لـسعتني بـرودة مـاء النهـر وعـضتني أشواك افترشت الضفاف .

كيف يمكن رسم الصراخ ؟ أو اختنـاق الصوت فـي الحنجرة ؟

القهـر ملتـصق فـي صـدري، لـه حموضـة العفـن وصـرخة العطـشان، صـغر الفـضاء وضـاقت الـسماء

بعيني، صدرت مني صيحة لا أعرف كيف خرجت: - غريبة فيك يا وطني وغريبة دونك.

سمعتني عجوز في الكرسي اللصيق ، عدّلت هندامها، وداعبت خصلات شعرها المتناثر بفوضوية. تطلعت في وجهي مبتسمة ، بانت أسنان مرتبة بحكمة طبيب الأسنان، تجمعت حول فمها تجاعيد لا تخفيها مساحيق التجميل التي غطتها، تبادلنا النظرات فاتسعت ابتسامتها إلى تكشيرة ،الأنياب لم تمر على مبرد الطبيب ، أو ربما هي على موعد معه لتعديل تجميلي، ابتسمتْ لها مرة ثانية وعلى فمي كلمات متعثرة :

- هذا هو التاريخ !

- ماذا ؟

سألتْ باستغراب وبرمت شفتيها تعجباً، لو تدري أن التجاعيد عميقة حول شفتيها لما تبرمت.

عطرها المنعش أعادني إلى وقوف عباس على قارعة الطريق، يتوسل المارة لشراء زجاجة عطر تقيه جوع يوم، دائما يضيع الثوري كنظرة بعيدة، خططه السرية للهروب، تشرده بين النخيل، سجنه وتعذيبه، حلمه بالثورة، السم الذي يُسقي للشعب كل يوم، الدعاء

للخليفة في الصلوات الخمس، وحكمة أن يكون له قول كأقوال الأنبياء والصدّيقين. لم يبق لدينا غير صدق الخليفة العظيم.وليس صدق الله العظيم.

غمرني وملأني وجه عباس حين أعطيته جوازي العراقي، ورجوته الاحتفاظ به.. هل سيعظم الله أجره لتحفظه على هويتي؟ إن الله أعلم بما في الصدور. توديعُه لي، يده المرتجفة وهو يضع رأسه بين يديّ ويضغط بأصبعي على صدغيه :

-لقد اخترقه السهم.

- سجدت عيناه في يدي وقال:

- - لا تنسيني، لا تنسيني.

- 8 -

حجرٌ يباركُ لحجرْ
على طحن الشعب.

...

لو دلّني أحد على عمري، اعطيته أيّاه شرط أن يدلني حقاً..
في هذه اللحظة كل الكلمات مومس والحروف امرأة عاقر.. بيني وبينك جدتي أحد الضفادع الذي تربع فوق رأسي كان مصابا بالاسهال..تغيَّرت الأشياء حتى مجرى الماء ودوران الأرض ، المركبات والسيارات في الشوارع، الأيام والأسابيع، الحقيقة والوهم كل شيئ صار له لون وشكل ضفدع مصاب بالإسهال.
إنني أكتب، أكتب عن الساعة هذه بالذات، بين الجنون وبيني شعرة،اكتبُ ،عن وجه اللحظة المفلطح.

الأمر يختلف حين نصف بدقة كل التفاصيل، لكن لا دقة بوصف وجه مفلطح طمست ملامحه.

هذا هو وجه الورقة الثامنة جدتي ، حاولي معي ، مَن يدري ربما فراستكِ تستوضح أكثر مني.

اشتعل همّ محموم بداخلي وقت أعلن عن إقلاع الطائرة المتجهة إلى المغرب، لكن عينيه رافقتاني كمدينة تبكي قتلاها، مأتم من بيت إلى بيت، ومن جفن لجفن، رموشه الطويلة السوداء المليئة بغبار السنين ومعجونة بدموعها، ماذا قال للحجية ؟ هل أخبرها عن حبه القديم الذي سرقه الزواج منه، والذي يضيع من يديه الآن؟ هل الفقدان حكمة الله ؟ ماذا قالت عني حين خذلتها في زيارة السيدة زينب؟

هل يدري عباس أني وجَدت شبيهاً له في مراكش ؟

هل يدري أن موظف الاستعلامات في الفندق الذي لم ألبث به سوى ليلة واحدة ورحلت، كان اسمه الهادي؟ وأن محمد الذي يرفع لافتة صغيرة كتب عليها اسمي وينظرني عند البوابة الأولى للمطار ذكرتني لثغته بحرف الراء بمداعبتي للثغته وهو يداريها خجلا ؟ فيمسح عرق جبينه الخجِل بكم قميصه محاولا لفظ الراء بشكل صحيح فيخرج من بين شفتيه حرف (غ).

شدني الواقع وجرني من الحلم وعرفني بأول السماسرة.

تمت إجراءات الدخول بطريقة فهلوية. فقط وقفت أنتظر . لم تغوني الأشياء من حولي، جمال المكان وعيون المارة، وجوازي المزور الذي نُقش على صفحاته اسم لا أعرفُهُ ولم أتطلع إليه أبداً سوى أول مرة وفي الظرف، فقد أخبرني السمسار الأول ألا أهتم، فهناك من يقلني من سوريا دون عناء ويوصلني إلي الطائرة، في كل مرة هناك من يفتح لي الأبواب كلها و كل ما عليّ سوى أن أضع الجواز في حقيبتي.. في مراكش استلمت جوازاً آخر. راودني الفضول هذه المرة في تفحصه.. كان اسمي مريم ألكاظمي، ماري، وماري لا تدري أين زينب؟.. وزينب بقيت في سوريا ، والتي ستتوسل الأقدار لا أعرف اسمها، كلها أوراق تتساقط مثل الأحلام، أسمائي أوراق خريف تنتهي إلى رعب الريح، لا يدركني إلا اليابس الذي بات منتصراً عليّ ويفصل بين تجلّدي وبيني. بين النخلة وعباس وزينب ومريم والبصرة، لأبقى ضفة تستبيحها الريح والأرصفة . لم تبق لي غير طفولتي التي أجد فيها

ذاكرة حية تدعوني إلى أن أصنع حلماً صغيراً مرت عليه السنون، ولم تبق لي منها غير الذكرى.

كان وصولي الساعة الثانية عشرة ظهراً ، انعكاسات الحر والشمس لذيذة لها مذاق(الكسكس) هذا ما قاله لي محمد الذي لم يأخذني مباشرة إلى الفندق بل إلى مطعم وسط المدينة ، والذي لم يسمع مني أي كلمة سوى الإشارة بصمت إن كانت بالرضا أو الرفض، ومن ريبته عرفت أنه يريدني أن التقي بشخص في المطعم.

تبادلنا الشراب البارد، وطلب هو (الكسكس) باللحم لثلاثة أشخاص. لذا صدقتُ حدسي بأن هناك من يخبرني شيئاً، شاهدت رجلاً يقرأ جريدة في المطعم نفسه، و بحركة تمثيلية رمى الجريدة وتظاهر وكأنه يرى محمداً لأول مرة ثم سلم عليه، دعاه محمد لمشاركتنا الطعام، ما أجمل الصدف يا أولاد الكلب.. تتاجرون بحريتنا وإنسانيتنا..

في الفندق وجدت غرفة محجوزة باسم مريم ألكاظمي. أعطيتُ جوازي الجديد ، وأحسست في داخلي باضطراب مكتوم .

غرفتي في الطابق الأول، تطل على شارع كله مطاعم ومحلات حلي فضية وفخار مزركش بأجمل الألوان، رميت حقيبتي المتواضعة ودخلت الحمام أشطف وجهي من تعب السفر والحيرة. تطلعت في المرآة ووقفت.

- ترى يا مريم من جاء قبلك إلى هذه الغرفة، ومن سيجيء بعدك؟ مَنْ ستحل عليه لعنة الله ويموت هنا؟ من نام في هذه الغرفة حتى مات فوق امرأة بعد أن نبح خلفها ككلب وخرّ كبشا وديعاً تحت قدميها؟ وكم مريم دخلت قبلك، وكم اسمٍ ترك بصمته على غطاء أصفر بلون ستائر غرفته البرتقالية المطعمة بالأصفر؟ كم سيجارة أطفئتْ؟ وكم نقود رميت راسمة فحولة لنسائها الرخيصات؟

مرت نصف ساعة وأنا أتفحص مريم. مرة أجدها ضفدعة ومرة فارسة.

رنّ جرس التلفون، رفعته، سمعت.

- أنا محمد في خدمتك سيدتي وانتظارك ، أنا معك حتى تغادري المطار.

- هل تنتظرني؟

- أجل سيدتي . لأريك معالم مدينتنا.
في الطريق سألني : ماذا تحبين ؟
-الأحياء الشعبية ،الأحياء التي لا علاقة لها بالخلفاء والملوك، أريد أن أرى جو السوق الزاخر بالكادحين.
- أمرك سيدتي.
- جرت بنا عربة صغيرة يجرها حصان، جلس قبالتي بعد أن سلمنا على السائس، نظر إليّ السائس متسائلا: من وين البنية؟
أجبته: من العراق.
فرح ومشا بزهو مرفقا بالحصان المسكين و مبتسماً في وجه محمد وبوجهي
- من بلد الأبطال.. يا حي ،يا حي!
- ابتسمت وابتلعت غصتي:
- يا عم. ما اسمك من فضلك؟
- اسمي عمر.
- يا عمر. هل سمعت بالحجاج بن يوسف الثقفي؟
- أي نعم .. سمعت.
قلت: أنا أحد الرؤوس التي أينعت وحان قطافها.

- هل سمعت عن نجمة تبكي في الليل؟ أنا هي، مريم التي لا يرويها إلا ماء الوطن.

وصلنا سوقاً كبيرة لشارع عريض جداً امتلأ بالسّيّاح الأجانب والعرب والباعة وأنواع الحلوى والتمر والمكسرات والعصير والأقمشة ، والباعة الذين يفترشون الأرض . دائرة بشرية حول رجل يعزف لأفعى وهي ترقص خارجة من صندوقها القصبي،الأفاعي تطربها الموسيقى. فترقص، ورأس الحسين يرقص مذبوحا والذنوب ترقص على السياط والدم الأحمر يرقص على السيوف.

هذا هو العالم.. وهذه مريم التي تجاهلتها القيم الإنسانية وتعارضت معها لكونها إنسانة حقيقية ترغب أن تعيش.

- 9 -

الرحيلُ يرتجف...

لا أنا من يرتجف الرحيل بداخلها وترتعد أوصالها.. نويتُ الاختباء بإنسانة كنتُها ،وأعد معها اللحظات التي فقدتـُها.. الطفولة لم تغادرني وأنا لم أغادرها كما لم أغادر المراهقة التي خبأت أمي تنورتها الحمراء في دولاب ملابسي...

تماما مثلكِ جدتي، لم تفارقني صورتك طرفة رمش.. أعرف أني أيضا لم افارقكِ بل تخبئينني تحت رمشك الكثيف طفلة تطارد الفراشات، أنخرطُ في السر إلى ثراء روحكِ العامرة وأتجسد على الورق حكاية تشربها عيناكِ.

هل اثقلتُ عليك برسالتي الطويلة؟

أرى بعين مخيلتي أنك قرأتِ الرسائل عشر مرات أو أكثر.

آه لو تعلمين مقدار سروري حين وصلتني منك رسالة ذات يوم تخبرينني عن أثر لك في المتحف البريطاني، عرفتُ وقتها أنني في الاتجاه الصحيح ، مثلما أعرف

أن هنـاك تجـاذب شـديد بـين الجـدات والحفيـدات.. مـن منطلق هذه الحقيقة حددتُ تعاملي مع السيناريو الجديد لْحياتي.. نعم سيناريو ونحن الممثلون والحيـاة خشبة لنـا وملهاة.

ملهاة نهمة لا تعرف اشداقها حدوداً.. الأطايب تُختصر والوقـت يـسخر مـن سـذاجتي واقتنـاعي بانـه لابـد أن يتغيَّر.

هنا.. في الورقة التاسعة ملهاتي أنا، حفيدتكِ .

كـان بـوذا يمنـي نفـسه ويقـول لهـا أن الحـرب والظلـم سينتفيان نهائياً، والعدالـة هـي الـوعي وهـي الفعل الأول للحرية،هكذا يطور الإنسان قدراتـه علـى الحـب والفهم، فينجز الإنسان إنسانيته بيده تماما مثل مريم الآن، التـي لم يفلسفها الفلاسفة ولم يفهمها الأنبياء.أ من الممكن أن أكون ضـرورية لـي ؟ أن أميز حاجـاتي الحقيقيـة مـن حاجـاتي الزائفـة وأرضـى باستغلالية العـالم لإنـسانيتي؟ أليست هنـاك دوافع دينيـة أو دنيويـة تجعل من الإنـسان حالة عدم؟ مجرد حالة عدم.

قررت أن أحمل الحقيبة " الهاند بـاگ" عن العجوز لأبعد نفسي عن شكوك ضابط الهجرة الذي وقف قرب

مدرج الطائرة ، متصيداً من يشك به أو يوحي له بأنه من الممكن أن يكون أحد طالبي اللجوء فيعيده على الطائرة نفسها. هكذا أخبرني المهرب . وهكذا أحسست بسخونة الدم تجري في عروقي، ورأسي يكاد ينفجر مابين اللعنة من الخوف وبين ارتباكي وتلعثمي من هذا الشرطي اللعين المركون على درج الطائرة، فبعد أن مزقت الجواز المزوّر في مراحيض الطائرة جئت أطلب ودَّ هذه الشمطاء وكأنها خارجة من ظلمة ضريح ، تبادلت معها كلمات خجولة رغم أني كرهت نفسي وقتها، وامتلأت قهراً، أقل ضحكة منها هي معروفاً كبيراً لي. رافقت المسافرين وتباطأت قبل أن أصل حدود موظفي الجوازات. اغتسلت بالوقت الممل مذعورة بلهاث أنفاسي، ودخلت الحمام مرتعدة كمن يُدخل سكيناً في أحشائه، تقلصت أحشائي، وتكوّرت عضلات بطني، فانبثق العرق من جبيني وهاج ألم في معدتي.

سمعتُ صوتاً أنثوياً، لم النظر إليه خشية أن يكشفني.. تظاهرت باستخراج قلم الحمرة من حقيبتي اليدوية. لم تمر علي هذه الأعذار والتباطؤ سوى خمس دقائق ،إذ كيف لي أن أصطنع ساعة من الوقت ليمر

الركب وتطير الطائرة القادمة من مراكش حتى تضيع وجهة قدومي. سمعتُ صوتاً آخر يسخر منّي: لا مجال، لا مجال زودنا مني متسائلا:

هل مزّقت جوازك في الحمام؟

يبدو أنهم اعتادوا على ذلك. وراح يمطرني بالأسئلة . فهيأت نفسي.

لأول مرة أخاطب الأشياء وكأنها جديدة علي. أحس بأني غير قادرة على ترويض لساني. وعقارب الكلمات تعيدني إلى المربع الأول.

أرجعتني التداعيات إلى خصوبتي الأولى، حين شممت رائحة الأنوثة تخترق نفسي وتشجيها ، لم أتعرف عليها مباشرة كنت خائفة، سائل ثخين ينساب دافئا يرتعش له جسدي وروحي، حتى أحسست وكأني فاكهة طازجة تروم لمن يقطفها من غصنها، تذكرت ابن الجيران، بائع الفول، وبائعة الحلوى المصنوعة من التمر، خاطبت النهر بلغته، والأرض باسمها، والنخيل بصلاته، لكن شفرة الماء لم تحل اللغز. ها أنا الآن أعضاء مبعثرة وحقيبة صغيرة وقنديل فارغ من زيته.

جلست على أقرب كرسي بانتظار التحقيق الحقيقي، اقترب مني شرطي حاملاً سندوتشا وعلبة كولا. توقف عندي:

- هل أنت طالبة اللجوء ؟
- هل أنت لاجئة الآن؟

رافقتني الاسم وسجّل ناسي الجدد، كتب لي حروف الهجاء الجديدة؛ ألبسني معطفاً لم أتعوده، أعدت الكلام لحلقي لأعرف من أكون. مررتُ أصابعي على وجهي أتحسسه ، تذكرت أفعى مراكش، وجدتها كرأس الحجاج ، تتوء وتتلوى بجسدها الراقص وبشكله الحلزوني وتومئ "اجلدها.. اجلدها".

هنا لم يتعلموا الجَلد، و قبل أن يسألني ضابط التحقيق بادرته أنا:

-اسمي وصال، من العراق.

تابعت السير خلفه بعد أن طمأنت جوانحي بأنه لا يعرف الحجاج.

جلس معي رجل آخر أعلى رتبة من الشرطي الذي قادني إلى غرفة ضيقة، حيث كنت خائفة حتى من لغتي، وراح يمطرني بالأسئلة:

- ما اسمك ؟

حزّ الصوت على عنقي ولم يعطني الحرف، لأول مرة أتذكر أن اسمي وصال !

أين كانت وصال طوال هذه المدة؟ ولمَ أتذكرها الآن؟ أهي مثل زينب ومريم أم وصال حقيقية؟ الويل يا وصال، كيف فارقتِني هذه المدة كلها؟ وأين كانت و كنت؟ أنت معي أم ضدي؟

كان الوقت عصراً، وذاكرتي كعصفور فقد فطنته، والأسئلة رقيقة ولطيفة. لم أعهد هذا الاحترام لإنسانيتي من قبل . لم يطلب مني أحد أن أسمح له بالسؤال قبل أن أجيبه، تعودت على الأمر، أدركت لماذا ينهق الحمار بصوت عال، لم يسأل المارة عن أبنائه ولا عن ثقل حمله ولا عن قسوة الحّمار، كان فقط يسأل، وكل سؤال ربح ، وتصورت لو أنَّ الحمير العربية كلها سألت بصوت واحد، كيف سيكون الربح؟

مشيتُ خلف موظف آخر قادني إلى حيث لا أعرف، بينما رجل صامت يسير خلفه بدا كصفيحة فارغة، غطّى دمعه برجولة تحوك قوة ضد نفسها.

لم تهزني الدموع، ولم أجدْ لها معنى، فحين قررت اللجوء والمجيء إلى لندن، لم يخطر ببالي أني سأجد الخوف يسافر مع الرجال، كدت أحتقره لولا إشفاقي

على قدمه المبتورة وضعف بنيته. ترى ما الذي فعلوه بك حتى استبدلت كفنك بكفن؟ هل تحتاج إلى الخوف هنا؟ لا تبتئس يا أخي، هي مقبرة كونية، ستجد هنا معظم الذين لم يقرأهم الجلاد. أنت الآن لك حياتك.،وجلدك الجديد.. هنا جنّة الخلود وخلود الموت.

يبدو أنه انتبه لي أحدث نفسي، همّ ليشاركني طعنة الكلمات لكنه تراجع.

دخلت إلى غرفة أوسع من التي قبلها، لم أقرأ عن خبز لا يعرف ماءه أو جائعين، لم أقرأ عن بكاء يمسح دموع البكاء، وعن راوٍ أخرس.

قَدُمَ لنا ماءٌ باردٌ، مر الماء كالسهم في معدتي الجائعة وبدونا جميعا أنصاف بشرٍ، أطفال عائلة أفغانية وشاب وسيم وصلوا قبلنا.

قمنا بإلقاء النظرات على بعضنا. جئنا ننشد السلم بسهام ظهورنا وصدورنا. جئنا من ناس ماتوا حرقاً أو دفنوا وهم أحياءً بملابسهم. لمّ لساني رماده وسأل الشاب الوسيم:

- ما اسمك يا ولدي؟
- اسمي حسام نوري .
- أعتقد أنك من بغداد؟

تحرك حلم عذب وكررت السؤال على الرجل الأعرج.
-أنا من البصرة، واسمي غالي مطرود .
عرفت من الوهلة الأولى أنه من البصرة، ربما خجله وحياؤه، أو سمرته.
جُهزت أوراقنا، وسبقنا الموظف إلى حافلة صغيرة متوجهين إلى (هوستل) قرب مطار (هيثرو) .
في الطريق كانت المدينة تراقبنا. كل شيء بدا جديداً، ولكل جديد لذة، لكنه كان لذة الموت. هبطت شيخوخة على تفاصيلي، إذ سار السائق بطيئاً لكثافة المطر، السماء مندوفة بقطنها الأسود، والصمت سيّد اللحظة، كدت أسمع أنفاس الآخرين حتى الأطفال هدهم النعاس، والآباء أطلقوا صفارة الشخير.
في باب الهوستل الذي بدا مثل القبو، استقبلنا موظف الاستعلامات الصومالي، بشارب خفيف وسمنة مفرطة، يرتدي قميصاً أحمر وبنطالاً أسود أما الشرطي فكان إنكليزياً ذا جسم واضح القوة وأخلاق حادة. فكان علينا أنْ نتنبأ بما سيأتي.
كان الفندق متواضعاً. قديما ورثّ الأثاث، فأشعرني بخيبتي، بدا لي مشروع فخ يجلد الضوء والمطر.

بابتسامة كسولة تجوّلت عيناي في أرجاء الصالة ريثما يتم الموظف إجراءات التسجيل.

رائحة الدخانَ ، تذكرة لشتاء مرّ. شعرت باختناق لاكتظاظ الصالة. أجلت طرفي كي أعرف كل شيء، مَرّ الوقت بطيئاً بروتين أبطأ، والصالة تشكو عاصفة محمومة. في الصالة تطلّع الجميع بعيون فضولية للقادم جديد، وفي العتمة تمنيت أن تنشق الأرض وتبتلعني، أو أن ينطبق السقف على جبهتي. تحسست وجهي، كان لوحة باردة بألوان باهتة.. أسود، أصفر، أبيض، لمست جلدي وجدته محموما ، حاولت شفتاي الوشوشة لكنهما ختمتا بالصمت أمام تناثر اللغات واللهجات، عربية بلبنانيتها وسوريتها وعراقيتها ومغربيتها. لغات أفريقية، إيرانية،كردية، باكستانية، هندية، أرمينية، چيكيّة.

قلت : من المؤكد أني سأموت في هذا الجو الخانق. قد لا تطلع الروح بأمر بارئها. هذه القصة الأخيرة التي لم تحكها شهرزاد. كنا جائعين، أمعاؤنا خمرت حموضتها، لكنها الساعة الثامنة والمحلات مغلقة، وموعد العشاء في الساعة الخامسة. قرأت اليافطة المعلقة على لوحة خشبية عن الوجبات الثلاث.

الإفطار من السابعة إلى الثامنة والنصف.
الغداء: من الثانية عشرة إلى الواحدة والنصف .
العشاء: من الخامسة حتى السادسة والنصف.
كتبت بأربع لغات، إنكليزية، عربية، هندبياكستانية.
الأطفال يلعبون على أرضية وسخة والرجال نصفهم ثمل والنساء يتبادلن الأحاديث علي ضوء خافت. وأنا أنتسب لزمن غريب.
صعدت السلم قاصدة الطابق الأول، حيث الغرفة (48)، أنوء بفيض من اللهب أغسل به وجهاً لوّنه التعب، شاهدته واقفاً وقت فتحت الباب، لم أعرفه في البداية لكن حين خطف بخفة الريح واختفى عرفته أنه الذي يتتبع أثري في كل وجهاتي.
في الغرفة، أطلقت ابتسامة باهتة، المغسلة وخزانة الملابس التي بالكاد تحمل نفسها تبدوان من زمن لم تمر عليهما يد أو ممسحة للتنظيف، توقعت أنَّ خلف الباب حمام، ربما حاجتي الماسة إليه. كذبت على نفسي وأغلقت باب الغرفة ورحت أسأل عن حمام، غير مألوف عندنا العرب أن تكون الحمامات مختلطة، الرجال والنساء تسمع أصوات بعضها، تَحاملت على خجلي فالحاجة ألحت عليّ، سمعت صوت المرثية و

نفيتُ نفسي إلى شرودها وخرجت مسرعة، عند الباب خرج ورائي رجل أسود طويل، بأسنان بارزة صفراء وعينين جاحظتين. سألته عن مكان الاستحمام فأشار إلى الجانب الثاني من الممر، تناولت فوطتي وتوجهت، حين فتحت الباب رأيت رجلاً يتنزه بفوطة لفها على وسطه لفاً غير محكم، ينتقل من حمام إلى آخر بكل حرية ويغني باللغة الإيرانية، تجاهلني ودخل، صوت امرأة ورجل يتجاذبان الحديث باللغة الهندية في حمام ثان، فاجأتني الأوساخ وأنا أحاول العثور على مكان نظيف أضع عليه ملابسي.

نسيت طبيعتي النظيفة ورسمتُ لي خارطة جديدة من الأوساخ والشعر.

كانت بقايا موساً للحلاقة وبقايا مخاط وشعر عورة.

في الحمام ذاته دخلت امرأة لا أعرفها، ناولتني الفوطة ولاطفت عنقي بماءٍ ساخنٍ ناقلة قدميها من دفة إلى أخرى كأنها شجرة تُغتصب فاستسلمت للبكاء. وبعد أن أزاحت الصابون عن وجهي رشقتني صهيلها، وشدت من أزري. رأيتها ترتدي ثيابها. مضيت خلفها في الهواء البارد ودخلت غرفتي. رمت بجسدها على

الفراش الذي تطـاير منـه الغبـار وضـجّت فـي دوامتـهـا..
كل شـيء عريان . أنا وهي والحائط والسرير والخزانة،
تجاوزنا كل شعور يسمّرنا في مكاننا وضحكنا لبعضنا،
وقتها سألتنـي:

- هل أنا أتبعكِ أم أنتِ؟

ثم غرقتُ في نوم عميق.

-10-

أوليت الأرض عيوني
فبقيت جفوني عالقة بالتراب.
بات نصف المهر بالجنيه الإسترليني
كيف نزوّج أبناءنا دون حب؟
ربما تتحول أجسادنا إلى طبق طائر يتسكع في (أجورد رود) وأخر أدوار البطولة يبيع الفستق في(أكسفورد ستريت).
قالوا: إن رجلاً مغربياً قد شارف الستين ، يبيع الورد في (بيكادللي).
من يدري .. ربما سأجد شبح(حضيري أبو عزيز)
يغني هناك وينتظر مبادلة النفط بالرجولة.
ماذا لو عاشت ألف امرأة بامرأة واحدة؟
ثلج لندن.. فنجان قهوة
وليس من عادة امرأة
اختبأت فيها ألف امرأة
أن تشرب القهوة بالسكر.
ساذج جدا

من يتصبور أنَّ القدّيسة عذراء
في مملكتنا..
تُنقع القديسة بالخمر
بعيداً
جداً
عن رائحة حرّية،
سفرة عظيمة في بلاط الملك
في الورقة العاشرة جدتي ستقتربين أكثر مني لأني سانتصب رغم توافر من يريد مسح اسمي، ستجدين نداءك على الاسطر، كما سترين معصمك بين الكلمات.
ورغم المحاذير كنتُ ومازلت أوجه وجهتي صوبكِ، حتى بكاءك اتخذته تراتيل لي.
قبل دقائق نهضتُ مفزوعة كعادتي الليلية، كنتُ بين الحلم واليقظة، تقلبت جمرة في صدري شقته نصفين، هبطت روحك عليّ من السقف، بابهامك أوسعتِ من شق صدري، ومحشورة بين قلبي وبخنصرك مسحت جرحا غائرا في رئتي، استخرجتِ الجمرة المشورة بين قلبي والضلوع، ونفختِ موضع الجرح ، همستِ بتعاويذ لم اتعرف على لغتها، فجأة شُفيتُ من كل شيء.

لا جمر ،، لا جرح،، لا حرقة،، أنتِ وقدح ماء بارد تسقينني منه على جرعات.
نهرتِ ضفدعاً يمارس العادة السرية تحت سلم الدار،وبحدة زجرتيه أكثر كي ينتبه لفعلته.
تذمر منكِ ونط على رقبتي لحسها بحقد.

سعرت الجمرة مجددا في أحشائي وغبتِ فجأة رغم اني حدثت المكان عنكِ لكنك لم تسمعي ندائي الجديد.
استغربتُ تصرفك غير المبرر خاصة وأن الشق الجديد في صدري فاضت علية دماء اللحسة المقرفة على رقبتي.
اضمُّ راحتي وأتهيأ انهما بين يديكِ ،، لكن؟؟؟؟
هي استفهاماتي جدتي أرجوكِ مازلتُ مبللة بكِ رغم الألم النهم.
ادخلي عاشر اوراقي وانتشليني .
* لا بد أنها السابعة صباحاً . فتحت عيني على أصوات النزلاء المتوجهين إلى الحمّام .
أصوات نساء ورجال وأطفال اختلطت ببعضها.
قرأت وجهي في مرآة صغيرة معلقة على حوض المغسلة، تجاوزتْ أغلالُ يومي حدودها وتحركت

أصفادها، استدرتُ أستلُّ من ثوبي رعشة ملامح ذابلة، غَسَلتُها بعد أن نثرتُ عليها برؤوس أصابعي الماء، لأحررها من غفوتها ومن فلوات تمارس معها رعشة الظمأ. الماء البارد منحني رعشة وشهقة.امرأة المرآة قرأتْ مسلتها، وتوقفتُ عند قيد الجوع واتخذتْ من التيه أبهى مقامٍ، محدثة نفسها:

- ليس المكان انقساما، والظلام ليس حارساً.
- من يسافر في صدأ يقبل كل هبوب عاتٍ.

احتجتُ أن ألامس بطني، ارتعشتُ جوعاً وارتعشَ بدني كله، لابد أنَّ روحا مرت جانبي. الأرواح الحبيبة تتزاور، أنها روح أبي، فقد كنت عزيزته التي يبيع عمره كله من أجل ابتسامتها، شممت رائحة أمي، سمعت صوتي ينتحب متواطئاً مع الجوع، لم يشاركني الخوف

مسيرتي المتعبة، ارتديت بنطالي، ومعطفي الأزرق وشالاً صوفياً أحمر، لففت به عنقي متوجهة صوب المطعم.. امتد الطابور من الباب الخارجي للمطعم حتى غرفة المطبخ.. حشد من رائحة الأفواه والأجساد الحامضة فانزلقتُ بينهم. أسندتُ ثورتي على ذاتي، و

بعينين ذابلتين شعرتُ بأني هويتُ إلى الدرك الأسفل من الكرامة.

سيدة المسلات تحتمي بظل جدار مشقوق. لم أكن في حالة بكاء ، لكنني بكيت، فاضت دموعي معلنة عصيانها على الكبرياء،أمسحها وتهطل. توحدتُ بإله السماء، لكزتني أفريقية بكتفها العريض غير مكترثة بالطابور، فاحت منها رائحة الخمر ورائحة الثوم. نصف الثدي الأعلى يشكو من البرد، والمؤخرة تشكو الزحام..

الوجوه تتطلع نحوي، فأنا الزائرة الجديدة، لمست الفضول في العيون يقول : من تكون؟ ومن أي بلد؟ وما قصتها؟ هل رمتها أسرتها؟ أم الفيضان،الحرب، الجوع؟ ماذا.. ماذا؟

اقترب مني رجل قصير أبيض بعينين زرقاوين، ساقته دموعي وجاء متردداً بكبريائه مهدئاً روعي، بين النطق والصمت ابتسمت له، ورددت عليه تحيته، تحامل على خجله وسألني:

- من أين الأخت؟
- من العراق!
- هذا واضح من كبريائك!

زحزح نظارة عينيه اللامعتين.

- وأنا من سوريا، طبيب صيدلاني، واسمي عبدالله.

- قلت: كلنا عبيد الله.. تشرفنا!

تمخبط رجل أفريقي يرتدي قميصاً أحمر وبنطالا أخضر، رطن معه رجل آخر محتضناً عشيقته التي راح يقبلها بين الحين والحين قبلات قبل الإفطار، مقبلات!

زعق أفريقي طويل برذاذ ملوث علا المكان باشمئزاز، جعلني أفقد رغبتي في الأكل.. بكى طفل من سراييفو شتمته أمه فصرخ أكثر معبراً عن جوعه، تمسكت أخته بأذيال أمها والتصقت.

جلست مع عبد الله على طاولة واحدة، أمامنا بيضتان مسلوقتان وقطعة(توست)، وكوب من الشاي، لم أحب رائحة البيض كانت فيه زفرة لا تطاق. قال لي:

- تعودي عليها فهي إفطارنا اليومي؟

- نفسه كل يوم؟

- والغداء والعشاء نفسه كل يوم،أما إذا لم ترغبي البيض فكلي زبد ومربّى.

- يا أنا قرفة من منظر الزبد بسطل والمربى في سطل وكأننا في أسطبل. هز كتفيه:

- لا مفر، بكرة تتعودين.

تذكرت عباساً. لهجة عبد الله الشامية رجعت بي إلى الوراء قليلاً. وأطلت عليّ العيون من خلال ستارة الحاضر. بدت كالأطفال من بعيد ثم تلاشت في الضوضاء وصراخ الصغار ، وشرب الشاي بأصوات مزعجة.. بعض النسوة مددن رقابهن حولي.. رفع بعضهن الأواني الورقية ورمينها في صفيحة الزبالة، ثم جاءت ضحكة عالية صدرت من رجل اهتز مقهقهاً ورشف رشفة شاي بصوت مزعج، نزلتُ السلّم قاصدة الصالة ثم الحديقة خارج الفندق، سلّم على رجل تونسي تمشي وراءه امرأته، بحجاب أزرق لا يطل منها سوى نصف عين وتجر وراءها ثلاثة أطفال. تشرب نشيجها وتبكي بهدوء.. لم تكن عيناها تتابعان شيئاً سوي الفضاء وركض أطفالها وظل زوجها. أومأت لي بالسلام مقلدة زوجها ورطنت بلكنة ليست عربية ولا إنكليزية.. بعد حين عرفت أنها من سرايبفو .. على عتبة الباب بدا الكون منشغلا بمطره. تجمع النزلاء في الصالة يتبارون الجلوس على الكراسي المحددة.. مطّ رجلٌ شفتيه وهو يفتل ورق سيجارته

وبحلق في الجميع.. طقطق عظام رقبته وهز كتفيه ثم غاب في دخانه .. همست امرأة:

- عبّأها بالسم!

- ماذا تعني بالسم؟ سألتها مستغربة .

- نعم، تعني حشيش.

دنت امرأة شقراء ترتدي نظارة، لست أدري لمَ جزمتُ أنها من العراق.. تحركت يداي في سلام خاص. فاقتربت .. اقتربتُ بحركة عمياء أعجن كلماتي.. ثم نزعتُ نشيداً من داخلي.

- يا مدينتنا المقدسّة ، نحن مذبحك ، وضحاياك، نحن أبناؤك يا حبيبة(مردوخ) أعرف أنك الأقوى ولأغضب، وأنك تحبين الصلوات. صلينا لك، لكن قلبك الغضوب لم يهدأ، وروحك المتوحشة لم تستقر، وعينيك لم تدمنا نظرتهما، نحن رعاياك الطيبون والصبايا المعطرات، تقذفنا حممك إلى مشارف الضواحي وتسوق قطيعنا إلي المجهول .. زحزحي أضلاعك قليلا، سنصطلكّ عليها بحنين لائق بك، أبحرت معك، وطرت معك، وتنقلت معك، صرتِ صاريتي واتجاهي، يا عظيمة الكارثة اهدئي وضمّينا.

- اهدئي أنت..

تنبهت لصوت المرأة الشقراء.

-اسمي أم حيدر، وحضرتك؟

- قلت: سكينة، اسمي سكينة ومن مدينة البصرة. وأنت من بغداد صح؟ عرفت لهجتك.

تصارع أطفال صوماليون مع طفل باكستاني.. أحدهم تناول علكة ملتصقة بالأرض ولاكها، والثاني امتزج مخاطه وحلوى في يده، رجل أحدب، أشيع أنه مختطف طائرة، وأن الزمرة التي معه كانت المنفذة للخطف وهو العقل المدبّر، سمعت حكايات كثيرة عن إيرانيين يدّعون بأنهم مصابون بالشذوذ الجنسي ويطالبون بحقهم في الحياة.. إذ عاشوا منبوذين في إيران.. بعد أن هدأ المطر تمشينا بحديقة الفندق، فأخبرتني السيدة بأن عائلة من البصرة قدمت أول البارحة، رجل وزوجته الطبيبة وابنه وابنته.

قلت: أين ذهبوا؟

أجابت:

- لقد ذهبوا لزيارة أقارب لهم، وهذا الحشد الذي ترينه هو نصف الحشد الأصلي، فاليوم أحد، وغداً سيتضاعف العدد فأغلبهم انحدر صوب جهته إلا الذين لا أحد لهم.

مـر الوقـت بطيئـا وأنـا أحمـل وطـن القيـد والتعـب، وحليـب أبجديـة تحتسي رذاذي. أواقـعٌ مـا أنـا فيـه ؟ أنـا زائرة غريبة، قرية مبعثرة؟ حياني السيد حسام الذي التقيته في المطار وكان معه شاب آخر.. ثم جلسا يتجاذبان الحديث .. رفيقه هرب مني ومن سلامي، كان على موعد مع الخوف . هذه حال اللاجئين حتى وهم في بلد آمن يمنحهم إنسانيتهم وحريتهم وحقوقهم. وهذا حال كل زائر جديد، الريبة والتوتر، يتصور كلَ شخص عدواً. نهرب من بعضنا في الداخل، ونخاف عيوننا وأنفاسنا في الخارج . الجميع يكذب. إنها خطوة أولية للألفة. أليس اسمي سكينة؟ كلّ له قضيته وسفحه العميق ، و ألف كهف.،كلنا يتمنى أميراً نتوّجهُ بلا معاهدات أو خسارة أو تنازلات أو سلاح ودماء. فعلي هو حسام و حسام محمد، وأحمد اسمه عبد الخالق، و أنا، أنا لست أدري من أنا.. مريم، زينب، سكينة، وصال.

في الحديقة فضلت أن أكون وحدي، أنثر ملح قدمي، أحكي للحشائش عن ساجل عاجي، مرت الجدات حكايات تدثر نساء الحلم، فأغرقت نفسي بهوس نجمة كُنتها، ملأت جيوبي بأمسية قمرية من بلدة عذراء.

ارتجفت، سقط المطر وعدت أدراجي أتأبط غربتي. تصادقت مع طبيبة أسنان. اطمأنت لوحدتي وألفتُ غربتها. مر الوقت مسرعاً، وحان وقت الغداء. قالت وهي تتكلم بهدوء الأنثى الوقور:

- لنأخذ دورنا في الطابور.

صمتت ثم واصلت:

- ليس بسبب الجوع. وإنما لهدم الوقت فأنا منذ أن جئت لا أتناول غير (" فنگر فش"أصابع السمك - والخضار المسلوقة)، ومع مرور الوقت أصبحت هذه الوجبة غداءنا وعشاءنا كل يوم وليلة.

ونحن نأكل، تشاجرت امرأتان، واحدة سمينة والأخرى نحيفة، وعلينا أن نتفرج.

نظراً لافتقاري تجربة العراك، تصورت أن السمينة تغلب، لكنّ الأمور جاءت عكس توقعاتي. اشتد الدافع لدي لإطلاق مزحة ماجنة.. فأردفت هي الأخرى بمزحة مثلها.. بعدها عانقتنا صمتنا.

ما زلت أرتجف بعنف كلما وقعت عيناي على ملامح تشبهني. خرجنا نطلب هواءً نقياً وكان خداع النفس آخر شعاع الأمل بحياة نظيفة آمنة رغم فوضوية الوضع الذي فوجئنا به، ورغم المحيط الذي يريب الظن.

قبل أن يمضي العصر إلى مسائه، وصلت عائلة مكونة من زوجين وولديهما .. شكلهم يوحي بعراقيتهم، سألت أحد الأولاد عن هويته. أجاب:

- لا أعرف .

فأدركت أنها الملامح التي تسكن دوامتها.. عاد إليّ الشعور الذي يستيقظ لحظة خوفي،أصابني اكتئاب وأنا أجالس عائلة غجرية من(الچيك). أمهم الكبرى بلعت أصوات ستة رجال.. وحين نهضت بعد أنْ اتكأت على عكازها، لاح نهداها المتهدلان وحلمتاها اللتان بحجم فنجان القهوة. وتركتهما يتلاطمان على بطنهما. لها صوت خشن أجش . وقفت وسط الصالة ونادت على كنّتها بأعلى صوت رجولي متجاهلة الجميع، بينما كنّتها كانت تساوم رجلاً فغانيا على نفسها وتطلب الثمن أربعين جنيهاً.

استدرت لرفيقتي:

- إنه المساء يا دكتورة فاسمحي لي!

- قالت: واسمحي لي أيضاً إنه وقت الصلاة والخلوة مع الله.

سار معي عباس خطوة بخطوة. رأيته يجالس أصدقاءه المثقفين الذين تورطوا بالضمير غير الحي

والقناعات والشعارات وأصابهم مسّ من الجنون. غادروا رفضهم ملتصقين بأنصاف قناعاتهم ليبقوا على صفحات الجرائد، مجرد زاوية صغيرة أو كلام هنا وهناك. ليس لهم سوى فكرة ثائرة على مرحلة خربة وعلى حكم فاشي ودكتاتوري. و كلما غاب عنهم واحدٌ اغتابوه وأشعلوا أهله بمقصهم.. هم الذين كانت أبوابهم مشرعة ونوافذهم تطل على بساتين الروح . تركوا بيوتهم المبقعة بالحروب. . لم يقدروا على النسيان ولم يتعايشوا.

وأنا قاصدة غرفتي.. توقف قليلاً ليلتقط عصاه التي يتكئ عليها.. لاشيء أصعب من دمعة رجل كابر كي لا تقع ، نظر إلى الأفق، عالقة به بعض بقايا التعذيب والسجون. لم أسأله هل حدث العجز له في البصرة أو الحلة أو بغداد. . فالبلاد سجن، والسوط واحد يلتف على الجميع.

ليغفر الله لخريطة شرّدت أبناءها.

- 11 -

الليل وحده يدركُ
قدسية اللحن الذي تثاءب
في مزمار متشرد تسوقه السنون
للذبح.

سندخل هنا نسقط معا على الورقة الحادشة عشرة، لا نبحث عن وطن آخر لأنه فينا... لا نتفوه أو نهم لإصدار صوت، ندخل ونقرأ معاً..هل ساقترب منكِ أم تقتربين أنت؟

((في سكون الليل، تبدو الأصوات مبهمة، تدنو، تغادر الغرفة مسدلة صمتها المدويّ، وحشرات رخوة تتجول بحرية في أرضيتها، والبعوض يغزو الأغطية. غطاء الفراش ممزق ومحروق كأنه لم يُغسل منذ عام، ووسادة رثة تشتكي ألف رأس لوثها بعرقه، برطوبته، بقمله وعفونته. لأني أعياني التعب قررتِ أن أتوسدها كما توسدها الآخرون .

لما حل المساء، سمعت همساً وشعرت بأصابع لطيفة تمر على يدي وكأنها تقول لي هات يدك، إنها لي، لكنها حدثتني بصوت رصين:

-ماذا تكتبين؟

سقط القلم من يدي كجرة فخار تكسرت كلماتها.

- أكتب ملاحظات تخصني عن أيامي، عن أسمائي، عن إنسانة خنتها وعن مطر مخبّأ في الهواء.. ثم من أنت؟ كأني رأيتك تمرقين كخيال.. أنت أنثى إذاً لستِ رجلاً. لقد خلتك رجلا؟

وقفت وجها لوجه قبالتي:

-أنا الرنين الذي يلاحق بعضه، هل تسمحين لي أن أدخل طقس كتابتك؟

قلت: بكل سرور، ورحنا نتبادل القلم، نغرف كؤوسنا ونسكر بأوجاعنا، نتعلق بأسمائنا وهي تغسل الحلم من دمائه، وتعود بنا لطفولتنا، لصفوفنا المدرسية، نسيل مثل عرق السنين على ورق الدفتر.

وحين وجدتها السلوى ابتعدت عني.

- لمَ ابتعدت سيدتي؟

- لأتركك مصلوبة على قلم يعصر عصره . ينزّ منك ويتجزأ!

قلت :ألا تنامين؟
ردت: - المصلوبة لا تنام .
رفعتُ قدميّ على السرير وجلستُ القرفصاء.
-أشرعي لي قلبك وأفصحي. من تكونين ، ولمَ تلاحقينني، ثم أين تحدقين؟
- راوغتني بصمتها. قفزتُ من مكاني على قرص حشرة في الغطاء. سقط المطر عنيفاً ، اقتربت مني، لمستْ يدي ، تنفستْ معي، وباحترام وتهذيب سحبت القلم من يدي وشرعت تكتب.
لمَن تكتبين أخيَّتي؟
أجابت ووهج النار في عينها: أكتبُ لكِ
استغربتُ ردها ، جلستُ قبالها مستفسرة:
- لكني انا ايضا اكتب رسائل لجدتي.
هزت راسها استنكارا وقالت: ستنقطعين، لابد أن تكون واحدة منا التي تكتب ،أنت كتبت كثيرا، جاء دوري الآن.
باتجاه الباب تسمرت عيناها باحثة عن كلام لا تعرف كيف تكون بدايته،، صحتُ ثائرة :
- أنا اريد مراسلة جدتي.

هزت مرة أخرى رأس الواثق من نفسه: ستجدينها في المعرض الوطني ، الجناح الخاص بتراثنا العراقي.

إذا كيف سنبدل مسار الرسائل ونوصلها الى الجدة الكبرى؟

قالت: انا سأكتب هذه المرة وأنت تسجلين على مسجل احداثكِ لكل منا طريقته وما يرد الافصاح عنه.

- هل هذا لغز؟ انا اكتب لجدتي وانت تكتبين لي ،ولمَ لا أكتب أنا ونكمل الرسالة.

لا لا لا ،، أنتِ احكي عنك وعني وأنا احكي عنكِ ، هذا هو المسار الحقيقي، وابدئي من جديد لان الجدة غابت هنا، انها في المتحف كما اخبرتك.

تطلعنا ببعضنا ، وبصوت واحد رددنا: اتفقنا.

واستطردت: سأبدأ أنا الآن:

- لابأس، قلتُ لها لكني ساضع في الرسالة علاماتين لكلامك وعلامة لكلامي وتنتهي الرسالة بنفس العلامتين ، ماهو رايك؟

***

سيدتي الحزينة:

كنت أدّعي بأن الوجه الصغير حين يتفتح للميلاد، لا يفهمه الآخرون، وان مشاعرهم تجاهه تبقى مجهولة، لكني عندما كبرت، صرت ضد هذه الفكرة،إذ من السهل معرفتي والوصول إلى دواخلي دون عناء، فأنا واضحة وضوح الماء الرقراق رغم الحركة التي أضيءُ بها البيت، لكني لا أسبب أية متاعب للأسرة وبالأخص أختي الكبرى .. ربما لأنها كانت هادئة ، تتقبل المقالب التي أواجهها بها خاصة في موسم الجراد، ولطالما اصطدتُ جرادة وركضت خلفها.

كنا بعيدتين عن الاكتمال الأنثوي، أنا في الثامنة ، وهي أشرفت على العاشرة. كما كنا نقتطف الحشائش نصرها في طرف ثوبينا ونردد بعفوية الطفولة (ديك لو دياية. مركب لو حياية. أبو الزعل وفروخه ديك لو دياية) ، ثم نعود لبيت تتوسطه حديقة مثمرة بأشجار العنب والتين ونخلة عالية من صنف(البرحي) ، كنت دائماً آخذ زمام المبادرة في كل شيء، وباعتباري الصغرى كانت تعاملني بتعقل رغم أنَ الفارق بيننا سنتان ونصف فقط، لكنها تفتخر بنضجها محاولة

الإصغاء لي ولمغامراتي. فأنجذب إليها وأنتعش بهدوئها.

كان أبي يذهب لعمله باكراً، بينما أمي تتابع عملها في الخياطة، خياطة العباءات والملابس، ومشتريات حاجيات النساء من السوق وبيعها عليهن بالتقسيط، فتظل أختي تنحت بيديها الصغيرتين عمل البيت. الأرض تراب، والسماء سماء الله،(والمزاريب) تنشج مطرها ساعات الشتاء، والحمائم طوع هواء بارد تتحداه باختبائها في شقوق السقف والحائط و النخيل.

جارتنا بائعة الفول(والكماتيل)(بمهشّتها)، تهندس قدرها وتبدو كما الكتابة على الجدران .. فيعمر الشارع بناسه، أطفالاً ونساء، شباناً وشيوخاً و أغاني الراديو وسليمة مرّاد.

(مليان كل گلبي حچي. إلمن أروحن واشتكي) .

نبض القلب، بوح العباءات السود يعزف لحناً أزرق على الجسور، يتجول أخضر في صواني الأعراس والزغاريد، عنقود الأمل والدعاء صارية ساعة الطلق والحبل السرّي المفتون بمهده، يرقص عند الختان وجرس المدرسة والنشيد الصباحي وعد القلب، هذا شارعنا وأنا وأختي لنا صرخة الحلم

وحديقة الانبهار. مسرات نادرة وحناء العيد تصطبغ بكفوفنا.

نترك الزمن يلهو بطفولتنا والشوارع تبتل بنا، نستضيء بدفء المكان المعبّأ بالحب، نطرق باب الجوع ، ندخله عبر خبز وجلاوة شعرية. في الطفولة كانت الطيور تتزين بالنخيل وتحتمي، وكان النهر وديعاً طيباً، وهو المرفأ الوحيد لأحزان النساء القادمات من بيوتهن لغسل الملابس والصحون، وللشكوى من أساهن الذي يبوح ضجيجه داخل الصدور. أعيد ترتيب الأمكنة وأصغي لموسيقى شوق رائع لأغنية قديمة استأنس لصداها، أسير ببطء على الشاطئ، وأنعم بمنظر البط ورائحة الخبز الساخن ومنظر النسوة الذي يُعشب الضلوع، أرمي حجراً في الماء.. كم أحبُّ تطايره على وجهي وملابسي حين يرسم حلقات دائرية تتشرب جلدي... أستلقي فوق وسادة الطين وقوارب الصيادين مستسلمة لنسيم رطب.

(زيادَو) كان يحب الشاطئ، يعشقه، يقف عند الجسر ساعات طوالاً، رجل لا جناح له سوى الجنون، لا يدري كيف يخرج من وحدته، إذ لا نشيد يقود إلى

اتجاه. أعرف كيف جُن وأخته حليمة، كم كنت أرقبها وهي تلوك العلك ،وتقف صامتة كأنها أمام مرآة نفسها.

سلوك (زيادو) اليومي حين يذرع الشارع متوجهاً صوب النهر، يجلب انتباه الصبية و يتحرشون، يطاردونه فيفر منهم هارباً ،ثم يلاحقونه منشدين : "زيادو نام بالشط" .

تقع هذه الكلمات على قلبه كالفاجعة، يلتقط حجراً ويركض خلفهم.. يطاردهم من زقاق لزقاق، ويردد(ما أنام بالشط عيب).. انتماؤه للجسر كانتمائه لأخيه جاسم الذي تولى رعايته بعد وفاة أبيه، يقف كل يوم على الجسر منتظراً جاسمَ الذي يشتغل في البحرية غير مكترث لقيظ و شمس، فقط يتوحد والانتظار ، يشكو للنهر لعله يعيد جاسمَ.

مصادفة غريبة ،، صاح(زيادو) آخر صيحة:- (ما أنام بالشط عيب)، ثم نام كشمس عاكسة زجاج الملح المتكسر على قشرة الأرض.

بتُّ ليلتها محمومة . شعرت بأن شراييني تهرب مني وبدا كل شيء كضباب، لم أسمع سوى صوت أختي يفيض كأرجوحة في الفضاء. دنا مني أبي وعوّذني بآيات من القرآن. فوّضت أمري لحضن أمي، وتكالبت

عليّ الكوابيس. رأيتني معلقة في الهواء وضفادع تهجم عليّ من كل صوب. أشهقُ ولا يسمعني أحد، صوتي خذلني .هرَف الحمّى وبردها هزاني.

سمعت أمي:

- إنه هذيان الحمّى. . وصال أفيقي وصال يا بنتي .. خذي جرعة ماء ..

مثل فرس نكثتُ المرض عني، ضمني أبي :

- لا بأس عليك، هي الحمّى لا تخافي.. المرض ليس لك فأنتِ فتاة نشطة حركة.

عامي الضوئي يغط بنومه .. فالحكاية محض ثرثرة، جارتنا (الخبّازة) تُزوِّج ابنَ زوجها البالغ من العمر اثنتي عشرة سنة لزوجة عمرها عشر سنوات.

الوقت يوشوش لأفكاري والليل دافئ بنزهته بين أشجار النخيل، تخرج العباءات السود من دواليبها وتنحل عذراً عذرياً فتغدو الصور رائعة النزهة في مدينة بيضاء مثل البصرة، مبهورة على حافة كتاب.

(أم البروم و حيّ الأرمنْ و أم الدجاج) و الخُبل المصابون بالعاهات .. تلك الأشياء تسكن الطفولة دون قصد . والمراهقات وأعذار اللقاءات النزيهة ورغبة في كتابة رسائل غرامية وإخفائها في كتاب التاريخ، تاريخ

لم يكن مهيئاً لغرام المراهقة، أتوسم بصوت أمي ، وأنا خارجة لزيارة صديقة لي، أستقلُ حافلة تقل الركاب فيصعد معي شاب مرح يتكلم بثقة عالية، يقرأ نشرة الأخبار على الجميع دون أن يترك كلمة حتى نحنحة المذيع والسلام عليكم، ثم ينزل دون أن يدفع ثمن التذكرة. تعوّد عليه الناس أن يضيء الحافلة كل يوم.

تنزهت نظراتي في الشارع وأنا في انتظار محمود..لم يأت على الموعد.. وحين رجعت إلى البيت وجدته اتصل.. وحين سمع صوت أمي . سأل: عن مطعم العروبة!!

كأنها قصبة شامخة وقفت حين عودتي قائلة:

- اتصل بك مطعم العروبة.

على الحائط ساعة قديمة تعطلت. كلما حاولت إصلاحها استدارت لي أمي قائلة :

- لن تعود لسابق عهدها.. أتلفها العطل.

قرب الساعة طاولة بنية اللون ومروَد كحل(وشيلة) معلقة على تعلاگة من الألمنيوم.

الأحداث البعيدة تلح مصقولة ، مفصولة عن عزلتها، إذ يمكنها أن تتجول معي وأنا أستمع لذلك المخبول الذي يقف أمام القنصلية الأمريكية في كورنيش البصرة.

ويصنّف الرجال بحسب رغبته برتب عسكرية وبأسماء غريبة.. ثم يتطلع إلى كرة منصوبة على صارية العلم الأمريكي ويقول:

- انظروا لهذه الكرة .. فينجذب الجميع إلي إشارته.أمريكا تقول : ألعبُ بكم مثل الكرة.

السنون العديدة ووشم يد أمي يرتجف في ليلة زفاف أختي وملامحها ترجو التريث، خاصة وأنها ستسكن مدينة الحلة .

سارت خلفها تلوّح بيدها، ورشّت الماء خلف سيارتها وعيونها تبلل الطريق..

- 12 -

أرادت أمّي أن تفكَّ حزنها
فاشترت ثوباً حزينا.

جدتي.. سأغافلها دون أن تدري وادخلكِ معي مغامرة الكتابة.

*

توقفت أصابعها الراجفة ورجتني أن اخلد للنوم.
سألتها:
- هل أنت خائفة، لماذا ترتجف أصابعك إثناء الكتابة؟
هل أنت بردانة؟
تطلعت لي بنظرة غريبة وسألتني:
- ما اسمك؟
قلت : سكينة!
قالت: - إذاً أشرعي قلبك للصحو يا سكينة التحدي وتطلعي من الشباك.

في الشباك .. كان المطر حنوناً على الشجر .. انسجمتُ مع نسمة ندية.. لولا الحشرات الملعونة التي داهمت جسدي ، وأنين حلم رافقني منذ سنين.

في الصباح لم أشعر برغبة حقيقية للطعام.. تركت الطابور الممتد إلى باب المطعم الخارجي وقصدت حديقة قريبة من(الهوستل) عبرت الجسر خمس مرات ذهاباً وإياباً قبل أنْ أدخلها محاولة ترفيه النفس بهواء عذب... وفي الحديقة ساورني شعور بأن الله يمشي معي... ارتجفت لمنظر الأشجار الكبيرة المحملة بالورد الأبيض. كلها ورد دون أوراق، غابة بيضاء، عبرتهن واحدة واحدة، وأنا أسير تحتهن، كأني رأيت وجه الله. إذاً،، هكذا يؤمن المتصوفة بالحلول .

أهو الصمت المطبق في الصباح؟ أم كانت الأشجار تتكلم، تنطق. كرهت الصدام بين الإيديولوجيات، وفلسفتُ أشجاري في حالة انجذاب عميق . في البدء كان التأويل. ثم الصيحة والانعتاق، وقدرتي غير المحدودة في تقييم فلسفتي الخاصة بيني وبين الورد والله والمطلق ،

قضيت ساعات طوال .. أتطلع لسكينة الورد الأبيض ودوران الشمس المجنون الذي تخيفه غيمات سود وبيض فيستحي ويكنّ .

انتشر النزلاء في الحديقة .. حدّق فيَّ من بعيد، عبد الله.. حياني فأشرت له بالجلوس.

-صباح الخير ست سكينة، كيف أصبحت؟ يعني ما شفناك على الإفطار اليوم؟

-كم من الأسئلة؟

-على أي سؤال تريد الإجابة: طيب سأجيبك باختصار، الورد أجمل من الأكل.. هنا أفطرت. هل رأيت أجمل مِنْ هذا الإفطار؟

-- لا والله،معك حق..

-سيد عبدالله.. هل يعجبك اسمك؟

-شو بعمل هيك سمّوني أهلي. عبدالله والسلام.

- لا ..عبدالله نعم ولكن ليس والسلام، وليس الأمر بيدهم.. أهلي وأهلك تعودوا على العبودية، نحن عبيد الإسم وعبيد الأسرة ،الأم والأب وعبيد المدرسة والشارع والتقاليد، الدولة والدين والله. كانت العبودية فقط لمالك العبيد وانتشرت. أصبحنا

عبيداً لكل شـيء.. ها.. لا تنس أنت عبد للحزب، أليس كذلك؟.

-لكن يا ستّي الحزب أنا اخترتو، وها أنا دلوقت سكرتير الحزب الشيوعي الكردي في سوريا.

صح لكن اسمعني سيدي:

- اخترت عبوديتك الأيديولوجية.. و.. يعني عبد .. تعرف.. أجمل ما في الموت، أنه يطلق الروح من عبودية الجسد.

- أي والله شو دخلك بتحبي تموتي.. هذا حرام لسّاتك صبيّة حرام.

- وأيضا يا أخ عبد تعودنا الحرام وجهنم .. منذ نعومة أظفارنا ونحن نسمع عن جهنم .. لا تكفر، تروح جهنم و.إن المعلم كاد أن يكون رسولا... والذي لا يطيع المعلم يعصي الرسول والعاصي في النار.. يعني اغتراب منذ الطفولة، يغرسون في الوعي واللاوعي كلمة لا حتى صرنا نخاف أن نقول لا، لذا ، نقول للحاكم نعم وللحزب نعم وللظلم نعم، وللزوج نعم، أ ما نحن فلا نعرف ولو عرفنا كفرنا والكافر في جهنم.

مفروضة علينا برامجنا المدرسية، ومعلمونا ورئيسنا وحاكمنا.. أنت من؟ أنت مجرد عبدالله، وأنا اسم فقط لا

خيار لي فيه. والآن تعددت الأسماء والموت واحد. مريم ، زينب،سكينة ، وصال.. وغدا من يدري سأغير اسمي إلى ديانا أو ماركريت من يدري .

سرنا عائدين إلى مسطبة بللها المطر قرب(الهوستل). جلسنا نرقب الوجوه، كانت المسطبة باردة، تذمرت من عنق سيجارة امتد حولي، مرقت طفلة سمراء ذات عينين سوداوين جميلتين. نطت فوق الحشيش المبلل بالمطر، ركضت خلفها أمها هادئة النظرات الموشومة بحزن قلِق.. سمعتها تناديها :

- مينة .. مينة .

ارتجف قلبي لسماع اللهجة العراقية. بدت الأم ممشوقة القوام متلفعة بحجابها المصطنع وتنّورتها الجينز كأنها بغداد ترتجف.

وخُطف العراقيون واحدا تلو الأخر.. ترى هل لهؤلاء أب وجدوه قرب باب البيت معبأ في كيس بلاستيك وأطراف أصابعه ممزقة ورقبته مقطوعة بالسلك ؟ أعرف لكل واحد قضيته، ولكل منهم ألف عين غرقت بالدم قبل الدمع. غرقت بالصمت، قبل أن تعلن احتجاجها وقبل أن تطأ أرض لندن فقدت ذاتها. أعرفهم مواطنين صالحين حولتهم الأوامر إلى أزقة ضيقة.

في وجـه كل منهم حكايـة.. أمُ سُرقت واغتـصبت أمـام زوجهـا وبناتهـا و بنـات اغتـصبن كـي يعتـرف الأب أو الأخ. مريض سُرقت أعضاؤه أو أحشاؤه إثر عملية فـي السجون . ترى هل الرجل ذو الوجـه الأصـفر الشاحب سرقت إحدى كليتيه في السجن؟

هل هرب من سجنه، من أهله، من زوجتـه. وكمـا يقول المثل العراقـي شِردْ بـالروح العزيـزة أيـة روح عزيـزةٍ دون الأحبّة .. كلهم بعربهم وكردهم ، شيعتهم وسنتهم، أفارقـة، وسـرايفيون، بوسـنيون، صـرب، صـوماليون، لبنـانيون وسودانيون.. كلهـم هجـرتهم بلادهـم، سـحقتهم الحـروب، وفـوز الملـوك والأمـراء والحكـام بخـسارة رابحـــة بـــوهم اصـــطنعوه ليبقـــوا علـــى العـــروش، كمهرجانات كاذبة لانتصار كاذب.

انتابتني ضحكة هستيرية عندما سمعت كرديـاً يحدث صديقه ويصف له:(الهوستل كلشي نسوان سودات مـا في بيزات هنا) .

هارب جديد من دولته، من حكومته من حزب يطـارده حتى من مائه وهوائه وسرير زوجته. من سيارة تسحق عظامـه قبل أن يركبهـا أو تُسرق وهـي قرب بابـه، من جريمة ملفقة لـه.. من جوع، لا، الرجـال لا تجوع، بل

تبيع الأمشاط والسجائر على قارعة الطريق، حتى وإن كانوا حملة شهادات عليا، فالدكتور لم يعد دكتوراً، والمثقف باع كتبه الثمينة ليعيش بشرف.

فيما نتجاذب الحديث أنا وعبد الله هيئ لي أنني رأيت رجلاً أعرفه.. تمعّنت، مَن يا تري هذا الرجل؟ . كأني أعرفه .. إنه الفنان صاحب الريشة المميزة، سالم ، لماذا جاء إلى هنا ؟ كيف ترك سيارته وبيته الكبير، و الذي كان كوخاً وعلى حين غرة أصبح قصراً ولحقت به مزرعة كبيرة، ربته أمه من قِدرالفول حتى يفع وكبر فناناً جميلاً رقيقاً بحساسية مفرطة، وبقدرة قادر تحولت الحساسية المفرطة إلى لعنة. أتراه هرب من الحزب أم أصبح عملة خاسرة بعد أنْ امتصوا دمه وأصبح يشكل عبئًا وخطراً على بائع ضمير آخر فكان لابد من التخلص منه ما أدى به إلي الهرب. أشحت بوجهي إلى الجهة الأخرى وتظاهرت بأني أسأل السيد عبدالله، فبادر هو: هذا رسام عراقي ، لاجئ من سنتين ويأتي لزيارة أحد اللاجئين هنا.

أتراهم وصلوا إلى هنا؟ أم أنه حقاً هرب من بطشهم؟

- يا ترى هل خاف مثلي في مطار هيثرو؟

- من؟

- الرسام وذاك الرجل الذي قلت لي إنه يزوره كل عطلة أو بين الآونة والأخرى.

- كلنا ارتاب، وكلنا مزق جواز سفره. وترك أرضاً تكره أبناءها بأمر حكامها، وترك عيوناً تنتظر حبيبة وزوجة، لا فرق، أم، أرض ، سوريا، البصرة ، كلها أراضٍ تهرب أبناءها.

- متى موعدكِ مع المحامية؟

- قالوا بعد ثلاثة أيام.

- هل لديكِ رغبة النزول إلي لندن؟ هناك سوف آخذك إلى مكان يجلس فيه أغلب الأدباء والمثقفين العراقيين، ربما تعرفتِ على أحد منهم أو لك الرغبة في التعرّف.

- أجبته : - غداً ..غداً .

ثم راح يشرح لي ظروف اللجوء هنا. :

- سابقا يا أخت سكينة، لم نجد في الهوستل غير ثلاث وجبات، دون أية معونة، بعدها نُرّحل إلى مكان آخر وتُصرف لنا المعونة " وبالفوجرات " وليست نقوداً ، ثم نصرفها من محلات معينة حتى يحين النظر والبت في قضيتنا بعد أن تقدم المحامية أوراقنا إلى(الهوم أوفس) وتعالج على حساب الدولة ونتعلم اللغة أيضاً.

- لكن هذه معونة حقيرة يا سيدي نسبة لغلاء بريطانيا

، فهي لا تكفي علف حمار. لستُ بحاجةِ مال ، جئت هنا من أجل إنسانيتي، من أجل أن أمارس حقي في الحياة، أن أتنفس هواء ليس فيه حزب حاكم، أن آكل لقمة ليست منقوعة بمرق الحاكم. لحمة ليست مقطوعة من غموس أختي أو أخي أو من أي خروف عراقي.. لا أريد فوجرات ولا أربعين باونداً. أريد وصال .. وصال.

- من وصال؟

- لا عليك . هي مجرد امرأة خطرت ببالي.

- هل محاميتكَ أعطت أوراقكَ (للهوم أفيس) ؟

- نعم وفوجئت بأني محترم، ويقدم لي فنجان قهوة بالتحقيق لا الصفع واللكم، وأن لي حق إخفاء أية معلومة لا أريد الإدلاء بها، أو أسكت إن لم أرغب في الإجابة على سؤال، وأني هنا أمارس حقوقي الإنسانية كلها دون ضغط أو تهديد، وكانت المحامية طيبة جداً، بريطانية من أصول أفريقية .

مثلما فوجئت عندما علمت أن الطوابير هنا ليست من أجل كيلو بصل أو سكر ، أو دواء . هنا من أجل أن تأخذ دورك لا دور غيرك، من أجل أن يكون لك الحق في كل شيء ولكن بالدور. بالوقت المحدد لك.

عدلت هيئة جلستي وبادرته بسؤال :
- وما قصة المقابلة في الهوم أوفس؟
- إنهم ظرفاء، سيفهمون أن لك حقوقاً، وأن المعلومات التي أدليت بها عند المحامية مصدقة من قبلهم، لكنهم يرغبون بالمزيد.
- وهل أرعبوكَ؟
- أبداً، كانت المحققة جداً لطيفة، لطيفة بخبث وطيبة بلؤم وودودة بحقد.
- وما النتيجة؟
- أنا متأكد بأني سوف أحصل على لجوء سياسي لأن الحزب عززني وقدم لي أوراقاً تثبت بأني محكوم بالإعدام في سوريا.. وهذا يكفي.
- ومن الرجل المتوجه صوبنا؟
- سترين .. إنه إيراني.
- وهل هو من الإيرانيين الذين يدعون الخنث والشذوذ؟
- لا.. هاهو قادم لأنه يتصيد كل زائر جديد، كما هناك إيراني آخر احذريه هو من المقيمين في الهوستل يعني هو مسلم أو هكذا يدعي وقد حصل على اللجوء بسبب تركه دينه واعتناقه دين جهوفا ، وهو الآن يتجسس.

سألت : - ما معني جهوفا ، ولصالح من يتجسس؟
- لا ندري لصالحِ مِن . ربما لصالح ، لا .. لست أدري بالضبط.
وعرفت أن(جهوفا) هو الله ومملكته في السماء والوسيط هو النبي عيسي وهو من المبشرين لذلك أو بالأحرى الوسيط، وأن هناك اجتماعات في الكنيسة لتعرفك كيف تصل إلى مملكة الله.
- هل تسمحون؟
- تفضل.
جلس بجانبنا ، شاب في الثلاثين من العمر، يتكلم اللغة العربية بلهجة عراقية و بلكنة خليجية وبملامح ليست كردية ولا عربية. قدمه لي السيد عبدالله بأنه لاجيء سبقني بأسبوع.
قلت : - من أين الأخ؟
- لا أدري. أبوي عراقي لا يحمل جنسية وأنا خليجي لا أحمل جنسية لا أعرف سوى(البدون) ولدت في بلد العمارات والنفط. في السيارات الثمينة والقصور، في حسابات البنوك أنا صفر وفي الهوية أنا صفر، وفي الأحوال الشخصية أنا بدون، فمن أنا؟ وضدٌ من أنا يا،يا .

قلت:- سكينة، اسمي سكينة.
- تشرفنا!
- لا يمكنك أن تبقى بدون، بعد وصولك وإقامتك أربع سنوات أو خمس سيكون لك الحق بحمل الجنسية البريطانية والجواز البريطاني هنا أربع أو خمس سنوات فقط وستجد بأن لك حق التصويت وحتى ترشيح نفسك وستعامل كمواطن شأنك شأن أي إنكليزي لا مواطن من الدرجة العاشرة هذا إذا عطف عليك البلد الخليجي واعتبر أن مواطنتك صالحة وليس فيها بهارات هندية، أو قات يمني، أو(پان) باكستاني أو.. أو.. إنك مجرد ثرثرة تمشي على الأرض ولا حق لك بصرف دواء يكتبه لك الطبيب في المستشفى لأنك لست مواطنا فيجب أن يُصرف لك الدواء الأقل جودة.. لو جاء أهلك إلى هنا منذ زمنّ لوجدت أباك وزيراً اليوم وأنت مرشح لزعامة حزب، ومن حقك حتى أن تسب الملكة وعلناً في (الهايد بارك) تعلن رضاك أو سخطك. فقط تعلّم الإنكليزية.
امتعض السيد عبد الله وقاطعني قائلا:
- آه.. هذه مشكلتي.. عندما كنت في سوريا التعليم كله في العربية لو فعلت عائلتي كما تفعل بعض الأسر

العربيـة التـي تعلـم أبناءهـا الإنكليـزي وهـم صـغار ولـم تسمني عبدالله.. لسهلت عليّ مهمـة التخاطـب فـي لنـدن، ولما احتجت لمترجم مع المحامية أو في الهوم أوفس.

همس في أذني: ست سكينة ، سمعتك تذكرين وصـال، أظنها سكينة ذاتها، صح أم غلط؟

ابتـسمتُ ولـم اكتـرث لهمـسه ومعرفتـه الحقيقـة بفطنتـه، اقتربت من جليسنا لأسأله:

- وما أخبار الثقافة عندكم؟

- أوه.. حدّث ولا حرج، أصبح لدينا تخصصات كثيرة، دكتـوراه بـستة شـهور، دواويـن معنونـة، باسـم كاتبهـا الـوهمي، روايـات مكتوبـة ومـصفوفة ومـا عليك سـوى دفـع مئـة ألـف ويختم اسمك علـى الغـلاف وتكتـب عنـك الصحف والمجلات وتتهافت عليك المحطـات الإذاعيـة والتلفزيونية وأنت تصدق وتقع في الفخ، كمـا لـدينا، مـن اجتهد وكدّ ووصل بعرق جبينه، وهم كثير أيضاً.

قلت: - هذا يحصل في كل مكان فقط ضع قروشـك، ثـم تذكرت المثل (خلـّي فلوسك بالشمس واقعد فـي الفيـاي) ، وتذكرت صديقاً لي من أجمل المثقفين العـرب يجلـس خلـف طاولـة صـغيرة يرأسـه شنويعر يعطـف عليـه فـي نهاية الشهر براتب هو مثل نملـة أمـام عظمتـه وثقافتـه.

هذه نهاية الثقافات، شاعر يكتب للراقصات والمطربات اللواتي يهززن الوسط يرأس ثقافة بأكملها، ولا عجب فهذا النفط والعولمة وهذه أسرارهما وخفاياهما.

- هل عندكم أدباء مأجورون للسلطة يكتبون أغاني للحاكم ويرأسون اتحاد الأدباء ويأكلون خبز الشرف؟

- هم في كل بلد وزمان ومكان.

قلت : مثل كتاب التاريخ والمحققين والشرطة والاستخبارات العسكرية والمخابرات، هم أنفسهم في كل زمان ومكان، خلقٌ مشوه وصحراء بعيدة تحصد شوكها ورمالها لكن يبقي الشعب هو الفائز.

احمرّ وجه الدكتور عبدالله :

- وهل فزنا بطلبنا اللجوء - نحن الشعب ؟ - فازوا هم وتشردنا وجرعنا كأس الفجيعة حتى الثمالة ، ما هيك ياستّي؟

الأفريقيات بملابسهن المزركشة وملوّنة بألوان زاهية وفاقعة، البعض مهن وضعن الباروكات على رؤوسهن والأخريات زرن الصالون مساءً ليبدون بضفائر طويلة حيكت بشكل متفرع مع شعورهن المنكمشة على الهامات، الهنديات معطرات بالدهون، مرتديات الساري، فأمام هذه البهرجة تذكرت أنه يوم الأحد ولابد

من زيارة الكنيسة، حتى المرأة ذات الأثداء المتهدلة، ارتدت ثوباً جميلا وتعطرت، ولحقها سربها قاصدين أداء الصلاة.

خلا الفندق من النزلاء، وشعرت بلذة الفراغ فقد طغى الهدوء على الصالة المخصصة لمشاهدة التلفاز.. رجل أحدب يلوث الهواء بدخان سيجارته. تحركنا وصديقتي طبيبة الأسنان والسيد عبدالله بكل حرية، هاجمنا القلق المعجون بالمسرّة، لوجود فسحة نتحرك بها.. ونتمتع بحرية معتقلة..

وفيما نحن نختلس حريتنا من الفراغ، نزل شاب أسمر نحيف ذو شعر أسود وعينين جاحظتين، وهدوء عميق يغلف سمرة وجهه.. قدمه لي السيد عبد الله:

- أقدم لك الأخ مازن إنه من بلدك. ثم وشوش في أذني :

- احترسي . كان يعمل لدى المخابرات قسم المتابعة.

قلت: تشرفنا..وتمتمت .. لحقوا بنا إلى منفانا.. ثم سألني: عن اسمي ومدينتي . لست أدري لمَ شعرت بقوة رهيبة تخترق بدني. ولمَ لا أعطِيه اسمي الصحيح، الحقيقة لم أتخفَ كباقي اللاجئين باسم مستعار، ومدينة مستعارة ومهنة مستعارة.

قلت : اسمي وصال، من مدينة البصرة وشعرت بحلاوة في فمي.. تذكرت حليب أمي الذي يجعلني فخورة باسمي...قلته صريحاً كي أعرف شكلي ولكي لا تبرئني الريح من أصلي، فكنت أصغي إلى جدراني كلما ذكرت اسمي صريحاً.

رغم أني أعرف اسمه غير مازن.. بل رجل ما، هتك الأعراض، وتجسس على البيوت، أخبر عن زملائه، اشترى مزرعة وسيارة وخالط نساء كثيرات مسروقات وعاهرات في جلسات ماجنة، شرب خمراً حتى اختنق. كرهته وأشفقت عليه فأمثال هؤلاء عندما يمسّهم الوجع يحسّون بألم مضاعف وندم جارح هذا إذا كان نادماً. وليس متخفياً باللجوء لمهمة أو كلت إليه كاغتيال زعيم. أو رئيس حزب، أو مقلد يقلده الشيعة أو كاتب معارض، أو محلل سياسي. كان هدوئه غير عادي، إذ بالكاد أسمع صوته، دنوت منه فاحمرت وجنتاه، اقتربتُ أكثر لاستدل على نبرة صوته. وجدته بعمر أولاد أختي. أشفقت على ثقته المصطنعة بنفسه. فرحت أكسر وأجبر، وأذم أمثاله وهو لا يدري بأني أدري ويتخيل أنه إنسان عادي، وامرأة تجالس شاباً بعمر أولادها. ودار الحديث، ورحت أتصيد في الماء العكر .

-يا ولدي هم لا يختارون أبناء الشرفاء مثلك ومثل ولدي، بل يختارون أبناء النقيصة.

احمرت جبهته و عرقت. أنقذ الموقف شاب يتكئ على عصاه.. لشبهه بشخصية نعرفها جميعا علقنا عليه وعلى المشبَّه به وقذفنا الشتائم وأدرت وجهي إلى مازن.

- أظنك تكتب التقارير الآن؟ و بنظرة فاحصة ركزت على عينيه.

-قال: لو كنت من هؤلاء لما وصلت إلى هنا.. أنا رجل متدين.

قلت في سري: - آه أي دين يا مازن.. أنا وراءك والزمان طويل والله لأعرّيك . ثم أردفت قائلة: ألا تودون تناول الغداء.

كان المطعم فارغا. لم نستطع التحكم بسلوكنا إذ لا تدافع ومدافعة وزحام و لكز ووخز. تحدثنا بسلاسة ونحن واقفون في الطابور. والأفريقية(روزا)بدت هادئة رغم صوتها العالي جداً. كما أن كرمها أصبح غير عادي اليوم، فقد ناولتني ثلاثة أصابع بدل اثنين من السمك، وصبّت كمية كافية من الأكل للآخرين. أما

الهنديات العاملات معها في المطبخ أفواههن لا تفارقها الابتسامات.

جلسنا قرب طاولة كبيرة. والتعب بادٍ على وجوهنا، بينما كان العراق سيد المائدة وسيد الحديث.

رغم كل أسانا تجمع الشباب حولي. ووجدوا بي أصواتهم ووجوه أمهاتهم.. حيث شبّهني حسام بأمه، لولا سمنتها المفرطة، والشاب ذو الوحمة الحمراء على جبينه صرت خالته.

قلت لهم: أنا أمكم جميعاً.. سالت دموع أغلبهم إلا مازن، لاذ بصمته كعادته. صرت قريبة لديه مثل أخته أو أمه ربما وجد طمأنينة معي كان يفتقدها. أو ربما شعر بحاجة حقيقية لأم . فاخبرني عن سبب تركه بلده، واستوقفتني كلمات قالها بصوت وبرأي أحد سادته، (لو الهواء يباع للعراقيين لبعته) ابن الكلب ألست عراقياً.

تذكرت مشروعاً لفمي.. لكني وجدته عاجزاً. كانت الكلمات مشلولة في حلقي. وقوتي كالثلج محنطة بنيران هائجة . نضح عرق وجهي، وظهرت على شفتي زرقة... انتبه لي الجميع. وكأن حجراً حاداً يخترق قدرتي على النطق.. خلعت معطفي وشعرت بأغلال توقف صدري.. أدرت عيني باتجاه حسام الذي تسمر

في مكانه مصعوقاً، رأيت في عينيه جمالاً لم أره من قبل.. كانتا عميقتين وثاقبتين وكأنهما نافورتان تتدفقان بحب الوطن. تجاهلت كل شيء. .. تطلعت في امرأة صربية تقود أولادها دون مبالاة. كاشفة عن صدرها وبطنها ، أشارت إلى شاب أعرج باللحاق بها. غرفته في آخر الممر، يعني بعيدة عن الأنظار... تركت أولادها يلهون وحدهم ولحقها.. والله أعلم بعمق خسارة الجسد. ليس المرأة وحدها من تخسر جسدها ، الرجل الذي يضاجع امرأة تعبث بطفولة بريئة، يخسر شرفه ورجولته .

التعب النفسي والجسدي هتك بي. وأصبحت كمن ينظر من زاوية ضيّقة أو من ثقبٍ لرشفة المطر.

لم أرَ الدكتور البصري هذا الأحد وزوجته الرقيقة الجميلة. أما ابنتهما فأطلقت عليها اسم بصرة . زوجان جميلان في كل شيء. بالبساطة والطيبة و الشهامة البصرية. إلا طبع أكرهه في زوجته وهو تقصي الأخبار وأسرار الآخرين ومتابعة التحقيق والتدقيق في كل شيء عن اللاجئين. وأنا بطبعي أكره هذا الطبع.. ربما أنا المخطئة وهم الأصح.المهم نعرف أن مجرد سؤال من أي شخص يثير الريبة والشك حتى أثناء

صفاء الروح. فأخذت الحيطة والحذر منهما، في البداية كان ينهبني شك تصرفاتها..هكذا تركونا نرحل بشكنا وخوفنا من خيالاتنا ، هكذا أطبقوا أصابعهم الشاحبة على رقابنا وعيوننا ورقابنا، كتب علينا أن نختبئ بالضباب، ولندن حافة سكين تشق أيامنا.

تسائلني الخيمة عن أوتادها وأسائلها عني ،عن القلق في الوجوه .وعن لندن التي فردنا أيامنا بها كبساط وحاصرنا الخوف ، كبرنا على الدموع والمجهول وطوعا ألفنا المكان، تعددت ألأسئلة وشحت الأجوبة، وتعايشنا مع الهواء الغريب، هم يسألون وأنا أرد ، أنا أصوغ أسئلتي وهم يجيبون.

أحياناً أردُّ على كل سؤال يطرح علي بطريقة المراوغة، خاصة ممن لا أثق بهم وبنواياهم، بما فيهم المرأة الشقراء التي لم يخفق قلبي لها أبدا، فقد كانت استثنائية بتقصيها أخبار النزلاء واختلاق الكلام الكاذب والتعليق على البنات أو النساء، فقررت أن أترفع عن العبث، عبث الأيام فينا وعبث المتطفلين، قررت أن أكون القادرة ، لأني فعلا قادرة على احتواء الجميع، وقادرة على زرع الحب بين الشروخ، فالعاطفة الحقيقية تدلل الشك. صرت الشقيقة الكبرى لمن هم

قريبون من عمري.. وأمّا للذي يرغب بأم، حتى الرجل الذي يدّعي نسبه لعائلة الموسوي، واشتراكه في محاولة اغتيال الرئيس، وأحاديثه الحسينية المتشيعة. إلاّ أن طيبة الأم طغت على غروره و تصنعه القوة فراح يدعوني بالخالة.

ألحت الحاجة عليّ بالذهاب إلى المرافق. كنت أعذب جسدي تفادياً للقذارة التي افترشت المكان. والتحمّل له حدوده. و صعقتني المفاجأة، رأيت امرأتين غجريتين تتحدثان بلغة رثة تنبع من ممارسة جنسية أكثر قذارة منهما.

لذا قررت الصعود إلى الطابق الأعلى حيث غرفتي والصمود هناك والاعتصام فيها ريثما يحل الصباح ونذهب أنا والسيد عبد الله إلى وسط لندن.. اللجوء إلى الوحدة آنس من الثرثرة في الصالة، فهناك ألف سؤال عن الاسم الحقيقي والانتماء الحقيقي والكبرياء المجروح ونشر الخصوصيات على الحبل وبسرعة البرق.. رجعت متألمة من وضعي ومن الشك المقيت في عيون اللاجئين.

وقفتُ قليلاً قرب السرير، لاح لي صرصار وسرب صغير من الحشرات.. أدرت وجهي، فإذا امرأة في

المرآة لا أعرفها.. ربما امرأة مريضة عائدة من طبيب أو مدفن صمتنا طويلاً، أعاينها و تحدق بي. تخطو معي خطوات متباطئة، نزفر ضجرها في هواء الغرفة ، تستغيث بتصبري، تتشرب أركاني وتناديني:- لا تقفي كالمشدوهة.

-13-

هَوْ...هَوْ.. هَوْ
هكذا يضحكُ المحّار
على شاطئ غريب.

الحدائق دئما تسالني عنك جدتي، لا حيلة لي إلا أن ادخل معك في رحيق النباتات والأزهار فهنا في لندن تكثر ألوانها، أنا أتنبأ بكِ لذلك لن أنحني ولا تهون عليك حفيدتك المدللة لو تذللت او شكت مرة أو بكت أيضا ، فروحها اقوى من الجبل.
ستعجبكِ جدا الانسانة الأخرى التي كانت تتعقبي، فقد ظهرت لي ورافقتني غرفتي اللندنية.

* * *

أدرك أن التي تقف أمام مرآتها لا بد أنها اكتشفت شيئاً. لكن في عينيّ العسليتين كانت المرأة هي التي تتطلع ، تسال عن حياة.. فأين هي نفسي وأين الحياة ؟

لمحتها واقفة ورائي .. بدا خيالها على الحائط كشلال تدفق بداخلي ، طغى عليّ سلطانها وسلطانه ودون أن أعي أية حركة وأفسر أي نبض، وببساطة ناولتها القلم ، وقبل أن تشرع في الكتابة استعذبت نظرة عينيها وجلستها ، فاجأني ألم أمعائي وكدت أفرغها.. تكورت بغطاء رثّ. اتخذت ركناً في السرير وتركتها تواصل كتابتها دون مقاطعة.

* **

سيدتي الحزينة:

في ليلة سفر أختي رافقني الحلم حتى اليقظة ، كنت أقف عند الباب الخلفي لدارنا.. زحف نحوي سرب من الضفادع، حجم الضفدعة بحجم حمامة .. هربت إلى الباب الأمامي.. وجدته مقفلاً.. دخلت الصالة وجدتها مليئة بضفادع أكبر، حاولت جاهدة فتح باب غرفتي وجدته محكم القفل . في غرفة أمي شاهدت بيضاً رخواً، قررت الصعود إلى السطح. كانت السماء مليئة بضفادع طائرة. سمعت لهاث صدري، والضفادع

تحلّق فوق رأسي تقذفني بالنار وتحرق وتهدم البيوت، تستغيث النساء ولا من مجيب.. الأطفال يحترقون وينتشرون في الفضاء مثل المطر. صحوت على صوت أمي وكفها وهي تربّت بحنانها على وجهي وصدري وهي تهمس بي:

- إنه كابوس ..أفيقي يا وصال "وصّولتي.. وصّولتي"

ثم مضت إلى مصحف قريب منها ووضعته تحت وسادتي مع دينارين لتوزعهما على الفقراء دفعاً للشر..

- يجب ألاّ يغادرك هذا المصحف... هو حرزك.. كم مرة قلت لك لا تجلسي في المغرب تحت السدرة ، الأشجار مسكونة وخاصة السدر.. نظر إليها والدي نظرة خاصة.. وغادر الغرفة بثقة عالية. عاد بيده حرزاً مغلفاً بقطعة من جلد الغزال، وضعه تحت رأسي.

- وهذا أيضا يجب ألا يفارقك، ستحرسك أسماء الله الحسنى التي كتبت فيه .

- بتُّ بعدها آمنة وغططت في نوم عميق.

بسبب أسلوب حياتي الروتيني وبشرة أمي الموحية بالكبرياء، وساعد أبي ذات العروق المفتولة بالقوة والشهامة، بدا مرور الأيام و السنوات واضحاً على ملامحي وعلى نضجي. صدري أخذ شكل فنجان

صغير، احتسى أيامه، وأذاقه اتساع القميص، وحلمة تصرخ. حتى باتت شجرة الوقت تأتي بلقاح الريح المحملة بالعشق، وباتت كلّية الآداب شاهدة على عشق عفيف.. لذا قررنا الزواج أنا ومحمود بعد الانتهاء من الامتحان النهائي.

كانت ليلتنا عامرة بالحب والزغاريد والأمل، استعدت هيأتي المرحة، وفي الليلة نفسها جاءنا خبر ولادة أختي.. وقفت أمي كزهرة عبّاد الشمس. تميل باتجاهي تارة وباتجاه أختي تارة أخرى. فقد تمنت وطلبت من الله أن يرزق أختي بنتاً بعد أن وهبها عوني ومجدي وها هو دعاؤها يُلبي من قبل السماء ويتحقق، فهوّست (هاي فرحه وبعد فرحه و اليحب يتبارك النه). وفي الصباح قررت الذهاب إلى مدينة الحلة.

في ليلة زفافنا اتخذت قراراً بعدم النوم، لأني أريد أن أعيش اللحظات بكامل وعيي وأحس بمتعتها ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا أريد أن يصحو عليّ محمود وأنا أصرخ.. صحيح أنّ القرآن والحرز حملتهما معي إلى غرفتي الجديدة لكني أحب أن أكون واعية على الأقل لتمر الليلة بسلام.

مر الوقت ساهراً معنا دون أن نفكر به، حتى طل الصباح مبشرا بشمسه ، لاذ محمود بنومه الصباحي، تركني ساكنة في الفراش متأرجحة بكسلي، وبينما أحدثه و هو نائم وجدتني أغرق معه.

ومثلما تتفتح الوردة وتواري شوقها في الهواء مددت ذراعي لأحتضن محمود.. رأيته ممتلئاً بالحب، وبعناق اللهفة تعانقنا، وصحونا من غيبتنا بعد قبلة صباحية على الريق.

شرعت أكتب لأني قررت أن أدوّن من الآن تفاصيل ولادتي الجديدة.. نعم ..ولادتي ابتدأت اليوم مع صباح محمود.. فكتبت بما يشبه الرسالة دون عنوان أو شخص معنون له.. فقط سيدي.. دونت أول ليلة من حياتي.. وحياة ثلاث زوجات معي. تزوجن في الليلة نفسها، واحدة تسكن بيتاً لصيقاً لبيت محمود والثانية في أول الشارع والثالثة في منتصفه.. تعودت الأهالي تزويج أولادهم الجنود القادمين في إجازة من الجبهة، وفي الأسبوع نفسه، تعويضا عن الذين ماتوا في الحرب... كل أم تتمنى أن يُولد لولدها ذكر يعوضها عن ابنها الذي ستفقده في ساعة طائشة، كل زوجة تتوقع عدم قدوم زوجها في إجازة قادمة.

أكتب عني وعنهن، تمنيت من الله أنْ يرزقنا جميعاً ذكوراً لما خسرناه طوال الثماني سنوات، فقد أكلت الحرب أجمل أبناءنا وأقواهم بأساء، حتى كدنا نشعر بأننا بتنا محفوفين بالرصاص وإلى الأبد.

أكتب كل صباح عن شؤون الحياة اليومية، عن سخرية القاذفات التي همدت بعد تخريب بيوتنا وتشويه الشوارع بالنفايات.

أحاول خداع نفسي بكسب الحرب. لكن سيان عندي، فحزن جاراتي العرائس على فقدان أزواجهن أنساني التلذذ بفرحة انتهاء الحرب،أوهم نفسي بأن فقد الأجنّة خسارة انتصار. من خلال الدموع بات صعب عليّ أن أميز في شاشة العين بين الشك اليقين.. نموت محروقين لا..يهم.. نموت محشورين بين أقدامنا لا يهم. المهم أن نلوي أعناقنا من حفرة الانتصار ونصفق للحاكم.

بعد مخاض دام ليلتين أطلق ولدي صرخته الأولى وأطلق محمود رصاصة من بندقيته في الهواء مستبشراً بفرحة القادم الجديد. بقدر فرحتي بالمولود فرحت بزوجي وبقائه قربي ، إصابته بمرض في القلب جعلته بجانبي دائماً ، يعني(سلاح سزّ) كما يسمونه في العراق . مسكينات جاراتي واحدة فقط جاءها ولد

والأخريات رزقن ببنات، لكن يتامى. شممت رضيعي، وسمعت هرجاً في الشارع، رأيت وجه القابلة مستبشراً فرحا قلت: أكل هذا لي. الشارع كله يزغرد من أجلي؟ قالت: بك وبكل الشعب فقد أعَلن وقف إطلاق النار وانتهت الحرب!

قلت: إذاً سجلي اسم ولدي.

- ماذا ستسميه؟

- سأسميه سَند.

منذ مدة لم أرَ وميض الأسنان البيض، وطفولة منعّمة تلعب قرب الأبواب.. تناثرت السلال بنذورها ودارت الكؤوس بالعصائر، وحلم النخيل المحروق باستعادة سعفه، تنزهت البيوت المثقوبة بالشظايا ومشطت شعرها الأسود الموسخ بالدخان. مرح الشباب ذوي الأعمار المشارفة على التجنيد وفرحوا برقابهم. وفي ذلك الوقت اتصلت بي أختي أم عوني مهنئة بالوليد وبالسلامة. وأخبرتني بموعد قدومها

وعائلتها للزيارة كما أخبرتني بأنها ستجلب لي صحناً من القيمر .*

(*) القيمر:- القشطة باللهجة العراقية

- 14-

لـُغتـي
أيتها اللعنة.

السحابة اليوم داكنة والهواء يتنفس دخانه كمدخن سجائر نهم ،تتناهى إلى سمعي الأصوات متداخلة ببعضها، هل تصدقيني لو قلت لك أرى الطيور تاخذ لونكِ اليوم؟
وهل تصدقينني أيضا لو قلت لكِ أنني اعبر من خلالها وصولا اليكِ؟
إنكِ الضلع الذي احتمي به جدتي الرائعة يا ملكة نساء الكون، فافتحي صدرك لي ها هو المطر ينزل خفيفا يمضغ رائعة التراب.

* * *

قررت الجلوس قرب العائلة المصلاوية لأكسر قيد الريبة فيهم. كانت الخطوة الأولى حديث ألفة متجاهلين

أسباب الهدم المروّض. ابتسمت الزوجة مضطربة. تلعثم الطفل الصغير بلهجته المصلاوية : - الشكريّة مالتي ما اقشعتوّى .

ومن صوت الزوجة الخفيض عرفت معنى الكلمات كما عرفت مرضها المزمن الذي حملته معها.

من ساعتها دارت بيننا صحبة جميلة وأحاديث أجمل ذات طابع خاص، والتقى الكرم الجنوبي بكرم الشمال.. لم نكن نملك ما يكفي الجود سوى الأخلاق النقية والصدق، فبات الوقت يمر ممتعا، وبالمزاح نجلو الليل والوقت الكئيب، بالتخطيط لمستقبل مشترك، وبأمانٍ عذبة اقتربنا واخترقنا باب الحياة القادمة، نملأ أوقاتنا بالمزح البريئة وفي نهاية الضحك نحزن على أمانٍ وهمية. مسحت الزوجة رأس ابنها كأنها ترتجي النوافذ المغلقة:

- دعونا نحلم.. إنه مجرد حلم ستجهضه الأيام القادمة.

قلت لها: - تصوري يا أختاه، في هذا الفندق الهزيل صار حلمنا بسيطاً جداً وتافهاً، مجرد حمّام ساخن ومكان نظيف، نحن كمن يضع بين يديّ الريح زهرة.

سمعتنا فتاة شارفت الرابعة والعشرين وشاركتنا الحديث:

- حقاً، سيدتي، صار حلمنا بحجم رأس الذبابة. وتعارفنا باقتراب الروح من الروح، ثم سلكنا ممرات ضيقة خاشعين لأجراس جراحاتنا.. كانوا يطلقون علينا جماعة المتحدثين لأننا أول من كسر طوق الخوف والتردد ، وبالأحرى أنا من بادرت بالحب.. اتسعت حلقة التعارف وكبرتِ الجلسة، فتردد المساء في بسط ذبوله على قلوبنا واستكبر صراخنا. امتزجت الأشواق واتسعت حدقة آهاتنا. أبصرت تفاصيلها بأرجحة صدور تُقسم بالولاء المطلق لأرضها. فيولـّد الكلام انطباعاً غريباً، مستخدماً الأنغام الصوتية بالترتيب وتنصت آذاننا تماشياً مع الفوضى.

راحت تمنحني قوتها وتعتبرني بمكانة أمها..تنتظر ذهاب الدكتورة الخجول.. طبيبة الأسنان البغدادية لتفتح لي صدرها.

- يا خالة .. سابقاً أفضل وحدتي ، ووقفتْ كمن تتذكر شيئا .. .اليوم صرت أنتِ كل عائلتي لذا سأسرد عليك حكايتي. كنا أربعة، أنا و أمي وأبي وأختي البالغة إحدى عشرة سنة . نعيش تحت سقف الحب. وكانت

حياتنا رغم شظف العيش وصعوبة الحصول على اللقمة والعلاج .. إلا إنها جميلة بنا ، نحن جمّلناها بالصبر.. لولا تلك الليلة المشئومة التي جاؤوا بها إلينا.. اقتحموا البيت واقتادوا أبي مكبلاً دون أن نعرف السبب. فعذبوه بأقسى أنواع التعذيب.

- ربما كان ينتمي لتنظيم ما؟

- أبداً يا خالة.. لقد فكرنا بذلك.. ولكن لم نصل لنتيجة. قالت أبداً والله. ،ثم نظرت إلى السماء ورفعت حجاب رأسها وناجت ربها :

- ربي أنت العالم بالأحوال.. أريد قصاصك؟ .

بعد ثلاثة شهور ، سمحوا لنا بمعرفة مكانه ولقائه، ولم أتعرف عليه للوهلة الأولى بسبب الأورام التي في وجهه والنحول الذي في بدنه، بات مجرد خيط ، وحين تطلعت بوجهه وجدت صلابة وقوة لا مثيل لهما.. دخل علينا ثلاثة ضباط يفتلون شواربهم..نظر أحدهم بوجهي ووجه أختي الصغرى.. تسمرت أمي في مكانها حين سمعت أن الاتفاق جاء على أختي . بعد أن قيدونا أنا وأمي. وتركونا خارج الغرفة خمس ساعات، ثم أرسلونا إلى سيارة تابعة لهم وتركونا هناك.

- وماذا فعلوا بأختك؟

عرفنا بعد ذلك أنهم اغتصبوها أمام أبي لينزعوا منه اعترافاً مشبوهاً. ثمّ لزّوا الحبل على يديها حتى انسلخ الجلد وتقطعت. شدوها من ساقيها ويديها حتى تمزقت وصلة وصلة.. وبعدها قتلوه.. وقتلوها.. . وفي نهاية النهار ، كنا أربعة، جثة صغيرة ممزقة ودم متيمم برصاصة.. وأنا وأمي نصارع أنفاسنا المليئة بالدموع.. وفي فضاء السكون والجنون .. نعربد.

قلت :ليكن الله في عون والدتك.

- بل في عوني أنا يا خالة.. لقد دفنت والدتي معهم. لم تتحمل الفاجعة فانهارت جثة هامدة فوقهما.

- لقد سمعت يا بنتي بأن الذين ينتمون لحزب معين يحصلون على اللجوء السياسي فلماذا لا تلجئين للجماعة التي ينتمي إليها أبوك؟

- لو كنت أعرفهم لما عشت في هذا الضياع.. فهنا دون هوية.. نخترق الموت البطيء.

مسحتُ على ظهرها : - اهدئي يا فتاة إن الرعب يسمعك ولا أريده أن يشمت بنا..لا أريدهم أن ينتصروا علينا.. لأنه مجرد ذكر آلامنا وذكرهم.. هو انتصار بالنسبة لهم. ألسنا نذكرهم صباح مساء.. ألسنا نفطر

ونتغدى ونتعشى وجوههم، هذا ما يريدونه. يكفيهم أنهم دخلوا أبواب التاريخ بوساطة جراحنا.

أسدل الليل ستائره وهمس بأذن البرد ، فانطلقت عاصفة خفيفة .. عدنا كل إلى سريره، وبقايا الماضي يلتهم ذاكرتنا في صخب أخرس. بدت النوافذ فجوات سوداء أمامي والغيوم انكسار يتدافع لينصب كميناً..

وأنا في طريقي إلى السلم .. رأيت السيد عبدالله ووعدته بالنزول إلى لندن غداً.

عن بعد رأيت ندىً عالقاً يلهو عابثاً بأوراق شجرة عالية وسمعت أصواتاً تُجلجل في غرف الفندق.. وحين طغى الفراغ سمعت طرقة على باب غرفتي.. تجاهلتها إذ لم تكن لي رغبة في الرد على أحد أو مجاملته. رغبت أن أرى السماء لأبصر المطر الخاشع لزرقتها المحجبة.. تحركتُ عارية بين السرير والباب، لي رغبة ملحة لامتلاك حريتي، عانقت عيناي السقف ، تململ جسدي المرهق في فراشه عبر شريط الدماء. تخيلت أن الحائط أحمر والسقف أحمر والأغطية وكل شيء بلون الدم.. ظلت عيناي في كهفيهما تعجنان المرئية بالمرئية وتحيكان الأقاصي بالأقاصي. تدلت الدقائق كالعناقيد في قبة الدهر.. فتحت نافذة قلبي. لم

أسمع مزمارها. أرتعش الزبَد في صدري و تفتق ماء أهدابي، قبل أن أشعر بشيء يهطل عليّ. انزلق النوم. أزحته عن عيني. تذكرت صوت روزا الطاهية ودعوة شر موروث في صوتها، ونظرتها التي تنصب فِخاخاً حيث تتصور نفسها فوق البشرية وفوق الطابور الذي يرتجيها ماداً صحناً فارغاً، كيف كنت ومازلت أدافع عن الإنسان وحريته وملكيته لذاته؟.. أليست روزا نموذجا له؟ وهل الإنسان ما زال غنياً بأخيه الإنسان، ونحن لا نمتلك التكامل دون بعضنا؟ لهذا وجدت الإنسانية مغرّبة حتى في هذه البلدان التي تدعي حرية الرأي والديمقراطية وحقوق الإنسان. لكن النظريات شيء والتطبيق شيء آخر. كيف تصورت أن العمل هو التعبير الذاتي عن الإنسان؟ هذه روزا تعمل وبحقد وسخط علينا، هل هي ذاتها؟ هل هذا نموذج لسلطة ما؟ أتراها وجدت ذاتها من خلال سلطتها ؟ أم من خلال ما تنتجه من عمل، وأحشائي التي لوثها طعام روزا؟ من المسؤولول عنها ؟ منظمة حقوق الإنسان، النفط، الباوند ، روزا، الوطن أم الشيطان؟ الحزن أم الأفاعي؟.

انتظرت من يعطيني رداً أو تمردا على روزا وسلطتها المكتسبة منا، ولكن عودة للحقيقة والواقع المرير الذي نجن عليه، ماذا بإمكاني فعله وهم يمسكوننا من اليد التي توجعنا، الصبر هو الحل الوحيد في هذا الحال.

تواطأت المدفأة مع البرد.. مدفأة عاطلة، شرشف قذر، وبطانية محروقة، ووسادة رثة، حمام مشترك ، غداء ممل. انتظار قاتل، وخوف يلاحق النفس . إنه شكل من السخرية من الحرية لا بل الاعتداء على المفهوم النبيل، وهو التناقض بين الواقع وما تطلقه نشرة الأخبار والصحف عن حقوق الإنسان، وبالتحديد عن إنسانيتنا نحن المعتقلين باللجوء والسكن ولقمة روزا الوسخة.

أكتشف بعد رحلة طويلة عبر سوريا والمغرب والاغتراب بأننا جراد وأننا فئران تجارب لمحكمة العدل الدولية.. من أجل مفاهيمنا ومفهومنا للإنسان نصبح فئرانا بحقل تجارب. أجدني صحناً فارغاً، مجرد شكل بلا مضمون، حتى يصلون إلى الغائي، كوني إنسان أتحسس الخطأ من الأصح وكوني أعارض

الظلم وأتمرد على النظم الاستبدادية التي صنعوها لنا كي يكسبوا بنا الإنسانية والأخلاق والعطف و.. .

ارتعشتْ أعضائي وارتجفت كالسعفة.. عريت جسدي أمام الذات. ارتديت دفئا صوفيا، ارتعدتُ أكثر. غرّبتني النظرية،التحفت الماضي لكي أفسر الحاضر، لا فائدة مرتجاة، فمثلي تكتنز النار في كيانها وترتعد في ارتجافها.

هبطت مرة أخرى، غطت جسدي الناعم الحساس ، بدفء لحافٍ حنون السخونة، ثم مدت يدها الدافئة تحت اللحاف، سرحت ببطءٍ تحت الغطاء واستمتعتُ بخضوعي لها، وكأنها مخدر لذيذ أحالني إلى حلم لم يأتني من قبل، ثم دفعت بحرارة سحرها مرة واحدة قائلة لي:

يا صديقتي المعفّرة بي.. كم نبيّاً يشاركنا العناق، وكم إلهاً أنثويا يولد فيك، فأنت ساحتي الملونة بأبهى الورود، بعثرتْ أوراقي. ارتعشتُ مثل نرجس داعبته الريح. فتحتْ أشيائي المقدسة لعبتْ بها، كأنني موسم يرتجي حصاده، وبغرور تقلدتْ ملامحها، كانت تملك حساً لا يقاوم، بالحقيقة، كانت تتجاوز الثقافات والفلسفات، فهي تملك أسلوباً مميزاً في الحديث

والتعبير عن أشياء كثيرة، تشدني إليها شفافيتها المفرطة، ليتها ترافقني طوال حياتي فأنا ضعيفة كل الضعف للمستها المقدسة، أحسستُ بأن جسدي بحر من النور. وبأني مجنونة، مجنونة حد الضعف، أخذتني أنام في نعيم حجرها، لا مسافة بين وطن قلبها وروحي، ابتسمتُ مسكونة بلهيبها، خضعت لمستحيل ولائها. ويداي تتبعان يديها كموج يصارع شطآنه.

- 15 -

أنتم
البياضُ المذهل.

تعلمين جدتي....عادة ما أرى الشوارع تمتد في الليل وتصبح أطول من وضعها في النهار، ذلك لأن عيون الناس تخترقني في النهار وتحيلني الى ذاكرة ما ، وذائما الاحالة تكون باتجاه الأبواب،
أو العودة إلى النوافذ ، لكن تبقى خارطة الانتظار هي المنتصرة في الآخر.
أما في الليل فالشارع يكون لي وحدي أراوغه واسرّحه نحو السفر، سفري أنا به وسفره الطويل بخارطتي التي تستوحي ملامحي وعينيك ونظرتي باتجاهك .
طبعا تعلمين أن نظرتي باتجاهكِ دائما. ومن هذا المنطلق ارجو أن تستمعي للأخرى وهي تخصني برسائلها باسم خاص وتقول لي:" سيدتي الحزينة"

تقبلي منها هذه التسمية رغم عدم رغبتكِ بسماعها ، فانت دائما ترفضين الحزن وتحثينني صوب الفرح القادم، لكن هي أيضا ترنو باتجاه عينيكِ فاعذريها.

سيدتي الحزينة:

**

في تشابك الزمان والمكان، كنت أسمع صوت بكائه يوم الختان. حيث سال دمٌ إثر حركاته السريعة والقوية لساقيه. مد يده على شعر أبيه. ضممت رأسي في صدر محمود، احتضنت رائحته، ورائحة ولدي وبياضه المذهل كأنه الرمل الخلاب..أما محمود فكانت عضلات كتفيه سماء لي، فيسيطر عليّ شعور بالفيض.. أتسلل إلى قوة جسد زوجي .. أضربه ضربة خفيفة وأتطلع في عينيه.

عندما رزقني الله بولدي قلتِ الأحلامُ المرعبة وراح هجومها على نومي يتباعد، ربما وجدت الأمان أو هو الحرز الذي وهبني إياه أبي..

حين أصاب بالبرد والرشح يتفتت محمود قلقا ويرتعش معي، ويسمعني قصائد أحببتها ، ويشجون،

يضع الكمّادات الباردة على جبهتي ويلتصق بي، فنغطس في عرق مفاجيء.

- لكنها الانفلونزا يا محمود ابتعدْ عني ستصلك العدوى.

يضع يده على فمي ويقبّلني:

- إن كان المرض من هاتين الشفتين ، فليتصدع الوقت..

يمد ذراعيه ويتركني أركن إلى دفئيهما، حين تتعب واحدة يسند رأسي على الأخرى وتمضي بنا هجمات المرض وفورانها إلى هذيان مقدّس.

-سنشفى يا وصال، سنشفى ما دمنا نتقاسم المرض.

- أشم رائحته الدافئة فاستيقظ خائفة، ومثل زنبقة يخيم فوقي نداه، وتحت صوت المطر الخافت يحملني إلى لهوه الماجن. فيجيء الصدى لاكتشاف نفسه بين ذراعيه ونلتحم.. وحين تتدحرج الوسادة أرضا. نتدحرج على الأرض الشقية.

- يتشاغل بسحب نفسٍ عميقٍ من سيجارته. وتحت الدش يطوي شعري المبلل بغوايته فنتسلل إلي

احتفاليـة أخـرى. ينكـث شـعري مـن مائـه وتعويذتـه المعهودة علِي لسانه:

- ابتعـدي عنــي أيتهــا النــار المقدســة.. ابتعـدي و إلاّ ألهبتك بزيتي واحترقتُ بك.

عنـدما كـان يـؤدي أنغامـه الخاصــة تحـت تـأثير الـسكر ويدور العرق في رأسه يناديني:

- ارقـصـي.. ارقـصـي. يــا وصـــال فــإن لـم ترقـصـي سيرقّصكِ الزمن. ثم يضع يديه فوق نهديّ ويقول: هل تشكّين فيهما؟ سيأتي ذلك اليوم الذي تشك الأم بحليبهما.

ارتعدتُ، وأصابتني الدهشة، ثم شعرت بظلام شبابي وخشيت طعمي المالح.. مددت يدي إلى وجهي لأتأكد أنه مازال صالحاً. وقف وبيده كأسه.

- أرجـوكِ اتركــي أبيـضـهما يـرش الجـدران وابـدئي بالدمعـة حتــى تـصير بحـراً وحتـى يكبـر الـصوت.(ثـم يسكت ويعاود) : إذا أحببتِ الأشياء الجميلة، ففتشي عن ألوانك من الداخل .. واصرخي، اصرخي حتـى يناديك الحليب يا أماه.

- اسـتغربت لطبعــه الحــاد. وانتهـزت فرصـــة دوران الخمر في رأسه ورحت أمطره بالأسئلة:

- محمـود، بـتُّ لا أعرفـك. هـل تنتمــي إلــى حـزب؟
شاهدته يقف في وسط الغرفة ويتجشأ :
- أنا أكسو ألواني بألواني وأتدرّج كقوس قزح.
أعرف محمود لا يمتزج لديه الوهم بالحقيقة، لا بد أنـه يخبئ شيئاً، هل انتمى إلى حزب دون أن أعرف، هو يدري بأن أي انتماء خارج السلطة يعني إعدامه. لا ..، فتح عينيه محاولاً طرد الفتور منهما، لصوته غاية لم اعرفها وقت رد على سؤالي:
- يا حبيبتي الحلوة، أنا لا أنتمي إلى مؤسسة أو نظام، الشهداء من أجل الوطن هم مؤسستي التي يجب الخضوع لها، ونظامي هو المطر، أنا ابن الشعب ، ابن الصغير والكبير، بائع الصحف، النجار، الأرملة،الجندي، والمكدين.
انسجمت وطبع محمود الجديد. فقد تغير بتغير الحياة، وتعطش بعطشها، وضاعت ملامح البهجة في بيتنا بعد اجتياح الكويت، إذ لم أر أمامي إلاّ رجلاً دائم التفكير لا يهدأ له بال. يصمت في عزلته ولساعات لا يكترث لي ولولده.. أتوسله أن يفيض عشبه ليلاً، يرفض.. وإن نام يحلمْ بالكوابيس. وكنت أصحو مرعوبة لهمهمته في الليل. ربما انتقلتْ إليه العدوى.

في ليلة وبعد كابوس مرعب . فتح عينيه محاولاً امتلاك نفسه واسترجاعها لطبيعتها:

- نحن كابوس اليقظة. نحن في كابوس.

سألته إذا يرغب في زيارة أحد الأطباء، رفض قائلا:

- أي طبيب هذا الذي سيشفي الوباء .

- أي وباء؟

- وباء الخطيئة..

- ببساطة من يعلم ويحاول ألا يعلم أننا لم نقع في خطيئة. قال:

- هو الشك في حياة مروعة تواجه مجهولا.. تغطى في كائنه الجديد ونام في رؤاه المبهمة.

في عتمة المساء وددت أن أخرجه من وضعه البائس فقلت له:

- محمود ..أنا حامل.. فرد عليّ بكل برود :

- مبروك!

- - إذا جاءت بنتاً أسميها بصرة.

- أنتِ متحيزة لمدينتك.

- لا والله يا محمود فالبصرة تستحق التأليّه، وهي مدينة الثقافة وأنا أعشق الثقافة وأهلها ومدنها وترابها.

- أمسك بيدي بقوة:

- لسنا بحاجة إلى أطفال الآن من يدري ما سيصيبهم غداً..

ابتسم ومسح بطني.. ثم ضرب قلبه:

-ليت هذا المثقوب يتذوق مياهك.. ليتني أنعم بك يا ابنتي. وددت لو تتاح لي صرخة ولو خفوت.

-بهدوء شهي لف ولدي بين ذراعيه وردد:

- حبيبي إني أترقبك وأبحث عنك.

- كيف تبحث عنه وهو بين يديك؟

-- هو رجائي يا وصال وجميع رغباتي.

أعرف أنه يعني شيئاً آخر وفهمت قصده لكني أتخابث لأتركه يفصح.. راودني شكي منذ أن صار يسكر بكثرة ويعربد بأعلى صوته، وحين ألجم صوته يخرج إلى الحديقة ويصرخ متعمداً ليسمعه الجميع :

- أمراض كثيرة ستنبثق. من الماء من جدران البيوت من لحمنا. وسنفاجأ بثعابين تخرج من عظامنا وتزحف

.

سحبته بقوة إلى الداخل وأغلقت الباب، أنا حقاً أريده أن يعترف لي لكن ليس بهذا الجنون.

- لستَ وحدك الذي يحمل على عاتقه تغيير الوضع يا زوجي، الإنسان الجديد يجب أن يخرج من ذاته صحيح

أن لكل شيء سبباً لكن الإنسان المنتصر الكامل صعب المنــــال.. أرجـــوك اسـكت والاّ خُــــرّب بيتنــــا.
- أو لم يخرب بعد؟
سأل وصمت بعمق ثم أردف: هذا الجنون بعينه. أنا أسكت وجاري يسكت . فمن الذي يبني ما تهدم؟
قلت: ولدنا مازال صغيرا. والقادم الجديد ينبض في أحشائي من لهم ولي بعدك؟
-عزيزتي الحلوة، كلنا أصبح ضد ذاته، والصاعقة أوشكت. ثم لا أحب أن أسمع منك هذا الكلام، ألستِ وصال المناضلة التي عشقتها لقوتها ودفاعها عن الإنسان؟ ابقي حيث أنت.. لا تغيّرك الحوادث.وتلاءمي وتجردي لتبدئي من جديد ، قشري نفسك لتجديها.. فالوقت يشوّه الإنسان ويغربه بحسب ما يقتضيه هو ومؤسسوه وقادته وساسته.

يا حلوتي.. حاربي من أجل حرية الآخرين قبل حريتك . لأنك ستجدينها من خلالهم . فأنتِ بهم تصبحين جماعة، وهم بك يصبحون فرداً واحداً.

- في لحظة الصياح والخوف من صافرات الإنذار، ناداني محمود مرتبكاً:

- وصال، وصال هو ذا المرض قادم.. هو ذا الوباء ، فاحذري، هيا انهضي.

بات من المستحيل أن أفكر أوأحس، وقفت كالبلهاء. خضّتني محمود.. خذي الولد. والتحقي بي، بدت لي الساعة أصعب من الجنون. ..شعرت بالرعب يجدلني. إيقاع العبث بالمكان حيث لا مكان إلاّ الملجأ، فهو ألعاصم الوحيد من قصف الطائرات، استجبت لاستدعاءٍ غامضٍ، ينتابني شعور بأني مدينة لأناس قربي، كما لو أن الوطن كله أنا.

الوجع يلامس أضلاعي، ورائحة الدخان والبارود تتسلق الشجر و التخيل، الجذوع عيوناً ترى إلى أسطورتها الجديدة وتشم لوعتها.

كان الطعن ساخناً، والوقت أعرجَ، والقواميس طائشة. غرس الغول مخالبه في كل مكان، مرّ على حُصرنا وتنورنا، ومسح الدقائق بنبيذ حامض، فقمنا ضد الأمان نتقدم خوفنا ونتماسك، إنه امتيازنا الوحيد حين يواجهنا الموت من الأمام، لذلك حفرنا له مكاناً في القلب.،حين نعتصم تحت ركن أو سلم أو زاوية في مطبخ نستعيد

أسـماءنا ونحتمـي بفجـوة الخديعـة.. اختـلَّ التـوازن بـالفوانيس المطفـأة، طحنـت التمـر الناشـف بينمـا الـصراصير مـلأت الـدبس، وامتـزج الهـواء الهـائج بالدخان.

دفنـّا موتانا بحدائق المنـازل، وتركنـاهم.. هكذا رأى ترابُ الحدائق إلى ما لم نـره، واختـار أجمل عرائسنا.. .خبـز الوجـع وانـشراح الـروح، واغتـراب الوجـه عـن الجسم، فكسر النهـار مراياهُ على شرفة الليل... وتلعثم بالـسواد، وهـاهو المطـر الأسـود يـدخل بـسخاء كؤوسنا ويتوالد فـي كل قطرة غيمة، ولكل غيمة جهة وبيت.

طوقني الوقت بالقلق، فالموت يقابلني كل حين، تركتـه يهذي، متحدية جبروتـه، وحين مشيت وجدت الماضـي يمـشي معـي، يتـستر بغبـار الحاضـر والحاضـرُ يقـف ببلاهة أمام المستقبل، بينما البيوت الخربة عكست مرايا إنسانية مشوَّهة،في كل عثرة طريق، ينزع التاريخُ جلده ويرقص، وينحت باباً لا يعرف جهة ولا يصبغه بلون. حـين يـأتي النهـرُ للمبـارزة مـاذا يتبقـى لنـا والـساعات المجنونـة حاشـدة قوافل ضـدنا؟ فكـان مزيـد الأعـضاء البـشرية قربـي، رأيـت تمـوز يحمـل الجـرار لعـشتار، يقصـان حلمهما لنساء النهر ويرسمان الكأس، بعدها لم

أرَ شيئاً ولم أشعر بشيء، سوى أصوات عابرة كأنها تمرُّ عن بعد، خيل إلي أني سمعت الجارات يصرخن ويولولن لموت والديّ، فغرقت بدمي ولم أعرف من أنا.. تمرغت بالتراب، والوقت الذي يتكئ على عكازه لا يختار إلا الأرجل العرجاء.

كان المخاض صعباً حين تكسر رحمي على جنينه وفتت ثورته، وكان السؤال جنوبياً، والفكرةُ عيناً رأت إلى مسارها، فخط محمود دربه وانكسر هو أيضاً واستدار رغيفاً لم أعثر عليه. فاعتذرت لرقبة مائلة وثورة هائجة بعدم احتفاظها بجنين قادم. ولدي يرتجف بقربي تركه أبوه وسار مع الثائرين، حين وعيتُ جيداً لوضعي، صرخت محروقة:

-كيف أجد من يشبهني يا رفيق عمري؟ كيف أعيش في غابة تسوق قطيعها؟ والبريد يهيئ الرسائل للذبح.. بت أخافُ نبض القلب وأخاف هدأته.

- أسكن خلاياي وأرجع طوعاً أذكر محمود حين سألني مرة: هل تشكّين فيهما؟ ثم يضع يديه علي ثدييّ، فعلت كما يفعل وصحت:

- أيها الضريح يا وعد القدرة، يا مَن تجوع ونطعمك الأغنيات، ألا تسمع الرحى تدور والحصان الرخو مسفر النقاب؟

-ضغطت على ثديي الأيمن بَقوة:

- أيّها النهر، أعطيتك سرّي هيا انطلق.

- تململ ولدي: ماما .. ماما.. أريد ماءً..

-أسقيته واحتضنته بشدة، فعرفت عمق الجراح والجمرة وأسمائها والصحراء وعيونها وحفظت الألم عن ظهر قلب.

-16-

أتدحرج..
خطوة متعبة
وفي صدري..
قلب من غبار
شكراً أيها الثوب
شكراً لكونك تحبس امرأة
بين أصابعك.

أستوي على سطح يديك جدتي كقطرة ماء على حافة نهر، وأتخيل أنني اقطف ثمار التوت، أوأتعلق ب" قارب " يعلو مع الموج،وتمر أمامي جدائلك الموشاة بالذهب فشعرك مسكون بالسواد وبالذهب.
في هذه الوردة تقفز صرخة مباغـِتة، تقلني اسمك فأردده ألف مرة كي لا تمر ثانية دونكِ.
ماذا تقترحين علي حين أزور المتحف البريطاني واجد تمثالك هناك؟

هل يكفي أن أمرر أصابعي على وجهكِ وأصرخ أمام الحشد كله: هذه جدتي التي راسلتها؟
أم أقبّل الموضع بصمت كعادتي في التعامل مع الحب حين يغمر صدري؟
أعرف أنكِ ستأتين ليلة لي أو نهاراً لتملي علي رغبتكِ.
إني الآن أمزج صورتك بألمي كي أتلذذ، وأقوى على ماستسرده لي الأخرى فهو فوق ما يتحمله الإنسان العادي.
كان الله في عونك جدتي، فقد حيرتاك حفيدتاكِ بالاسمين، أنا ادعوها" الأخرى" وهي تدعوني" سيدتي الحزينة".
كلانا جدتي نضع ملامحكِ على صفحة الماء.

***

لا أدري، هل أكون حذرة أم خائفة أم جديرة بالوصول إلى قلوب الجميع؟ كل فرد منا أصبح نديماً للآخر رغم أنه من الاستحالة التعرف إلى بعضنا، الفرح هنا نادر، أغلب الجاليات والجنسيات هاربة من جوع أو من عوز، إلاّ حزننا، يفسد الماء!!

طفلان أفريقيان يشهقان دائماً بالبكاء، تسيل الدموع الممتزجة بماء الأنف وتنطلق بقاربها لضفة الطفولة، تمتد الأيدي الرقيقة تنشلها وتمسح الدموع، أحدهما حبيب على قلبي بخفة دمه وضحكته التي لا تفارقه حتى ساعة البكاء. تصورته أجمل لو كان من دون أم، طفل يمسح أرضية الفندق برأسه وشعره المتجعد، بينما أمه تتطلع إليه وهو يرمي علكاً ثم يكوّره على الأرض يمسح به مخاطه ثم يلتهمه ثانية.

هنا تتبلور الطباع وتبدو حقيقية كالجهات التي نزحنا منها، إلاّ نحن ففقدنا طبائعنا وعاداتنا، تركنا أهلنا أكثر التصاقا بالزواحف.. الأفارقة أكثر التصاقا بذاتهم فمن يرضع جور الطبيعة يتشبث بها أكثر، لكن من يرضع جور حاكمه، مثلنا يفقد ذاته التي ستتركه كالأرجوحة .. أحد الأخوة الفلسطينية ادّعى بأنه عراقي ومثله شخص لبناني.. وهما يحاول نطق العراقية بلكنة..

قال الفلسطيني:

- أنا عراقي.

تداركت ضحكتي بابتسامة فاترة إذ لم يستطع نطق حرف ق ، أما المصري الذي ادّعى أيضاً أنه عراقي فقد قال إنه من(النگف) وليس من النجف!

تركتهم يختلقون كذبهم وادعاءاتهم لينالوا اللجوء .. هنا نحتاج الكذب سنداً. لا سند لنا غير صوت دواخلنا.

الإنسانية تكسرَ الحواجز..لذا أصبحنا أصدقاء، أبيضنا وأسودنا ننشد ليلنا المعبأ بالغيوم، ونسهر سوية ونتأمل قراراً ورحلة لمدينة نستقر بها، مدينة تجهلنا ونجهلها، فنجتمع ساعة الوداع قرب حافلة تقل العائلات والعزاب، تتوجه بهم إلى حيث يعلمون أو حيث لا يعلمون، سابحين بحلم الاستقرار.

كم تمنيت للجميع نافذة مفتوحة، كما تمنيت حماماً ساخناً ونظيفاً! ، هذه أبسط أمنياتي الآن. الويل لك يا سُكينة لا تملكين القوة لتصونين ذاتك من التناقص؟

المكان يسكنه الطير، وقلبي الذي لا يفرح وصباي الذي ضاع مني، وبضياع كل شيء صرتُ أتضايق حتى من الكلام.

هناك مسكن بعيد أراه كبياض الرائحة المنبعثة من المراقد. فأنزلُ بحره وأعود أصخبُ بصخب موجه المقدّس.

أهرب مني، تستوقفني امرأة بداخلي وسط الضفاف الطاغية ، فألجأ إلى فراشي الرث ووسادتي التالفة وبعوضها، فأشم رائحة العفن. تلح عليّ رغبة طاغية

في الخروج من النافذة . يرجّني حدث اليوم، طلبت من الطبيب البصري أن يمسك يدي لنتأكد من أننا نمشي على الأرض ولسنا عائمين.

حين حكيت له حكايتي مع الرجل الذي استوقفني وأنا قرب البقال وطلب مني أن أشتغل لديه خادمة.. برهنت على ذاتي بإمكاناتي الخاصة وتعاليت على كبريائي بصمت متكسر.... ضحك وراح يسرد علي حكايته قائلا: أمرك هيّن، لو سمعت قصتي ستدركين. كلانا عليه أن يكون أكبر من الوضع وأن يبقى أميناً لنواميسه سيدتي:

أنا أمس أصبحت لا.. سأبدأ من أول الحكاية: اجتزتُ الشارع الرئيسي، اعترضت طريقي امرأة وسألتني إذا كنت في حاجة إلى عمل.. تذكرت ساعتها صديقي الفلسطيني ومحاولة بحثه البائسة عن عمل. واعتقدت أني وجدت الحل. بادرتها بالسؤال عن طبيعة العمل فأجابت:

- تصوير أفلاماً إباحية وهذا عمل مربح ..

ضحكت بعد فقدي الوضوح والدقة.

حين غرة خطر ببالي الوعد الذي وعدته للسيد عبد الله والذهاب إلى داخل لندن. لم يسألني بعد أن وعدته بغد

وبعد غد دون أي تنفيذ، حتى خجل من نفسه وقرر ترك الموضوع.

هفهف قميص أبيض معلق على نافذة أمامي، صاحبه زنجي طويل يمشي بخُطوات صغيرة كمن لا هدف له، يتوقف بعد كل أربع خطوات، يرفع قبعته الصوفية ويسحب نفساً عميقاً من سيجارته، يشم قبعته ثم يضعها على رأسه ثانية، يرافقني قميصه كل ليلة، يعلو راقصاً أمام نافذتي، حيث ينام عريان، وعليّ أن أواجه عريه كلما وقف، فأجده شبحاً أسود يخيفني.

في ظل الشبابيك الخضر أضعت مفكرتي وجئت أبحث عنها تحت سماء ترطن بلغة لا أعرفها، أنتظر صباح غد والساعة العاشرة صباحا تحديداً، ربما سأجد في اللائحة الجديدة التي ستعلق على الحائط اسمي وأعرف وجهتي.. فبعد أن رحل كل من ألفتهم لم يبق لي غير عائلة الطبيب البصري والعائلة المصلاوية.

منذ توصلت إلى إقناع نفسي بأني لست بحاجة لسعادتي ، ودفنت تلك التي يطفح دلوها بالرقص. أصبحت الأيام هي هي، ضيقها، مسرّتها، صباحها ليلها، مساؤها، وظهرها كلها غير صالحة لشيء. يأخذ

الملح شكل الماء، تصبح كل الأشياء مشوّهة. في صحائف والوجوه.
في الصباح، ودون أن ننبس ببنت شفة، مسح فمه من وجبة الإفطار، ووقف بكل ثقة: ألا تذهبين الآن؟
لم أفكر بما يرضيني أو يرضيه، فقط قلت:
- على بركة الله، لنتوكل يا دكتور.
قصدت غرفتي لأجلب حقيبتي اليدوية ومعطفي.
عصف بنا ضجيج المترو، أصوات الناس المبهمة تتطاير متشابكة وتصدر دوّيا خاطفا، وصار كل ما في المكان رائحة خمر منبعثة من مخمور، تجشأ معتوه يهذي و يشير بيده كأنه يخاطب أحداً، حتى طلوع الشمس الذي غطته الغيوم لا يراهن على البزوغ، وفي هذا الخواء راحا يقبلان بعضهما ، صبيّان يرتديان ملابس نسائية. تشبثت بنفسي كي لا أفقدها، لجأت إليها.
داعب شاب شَعر صبية فبدت الحرية الزائفة حمق أعمى والعفة جنة بربرية، نظرت السيد عبدالله رأيته يضع يده على منخاره هرباً من رائحة مخمور بال على نفسه وبدا كل منا بعدم حماسه للكلام لئلا تدخل في حنجرتنا رائحة قذرة.

لم يعد يغويني الذهاب إلى داخل لندن، تمنيت لو لم أخطُ هذه الخطوة وصرت كأني ورقة متساقطة في خريف.أما هو، فمن باب الاحترام دنا مني وأشار إلى مقعد خلا للتو وطلب مني الجلوس.. فأعطيت لنفسي بعض ثقة. تضايقتُ من امرأة تبرز نهديها، تعاطفت مع أخرى جميلة تبدو مهذبة بعد أن وضعت الجريدة جانباً وبالمصادفة ابتسمنا لبعضنا، في خضم هذا الازدحام، رأيتها تعبر الوجوه، رفيقة ليلي، شاهدتها في وجه امرأة أمامي، غمرت نفسها بغطاء أسود. تعانق إحساسها بالتنهدات ورغبة في التحليق. كعصفور فقد جناحيه.. بحلقتُ أكثر وفتحت عينيّ حتى آخرهما.. كان ثمة عزاء في عينيها. وكانت راغبة في البكاء ، كأني أجدها تفتش عن ذاكرتها في وجهي.وأنا أحاول الوصول لسؤال يشق هذا الصمت،اختفت. فوجدتني أبحلق في وجه امرأة أفريقية لا مبالية بنظراتي التي أخجلتني. ثم همستُ في نفسي :

- بسم الله الرحمن الرحيم هل وصلت للتهيؤ يا سكينة؟

هزت المرأة رأسها وابتسمت، ثم طبطبت على رجلي تقودني للبحث عن يقظة.

أكـان مـن الـضروري أن أراهـا فـي النهـار؟ مـا سـر اقتحامهـا لـي؟ أكانـت تعوزهـا صـديقة والآن، وفـي هـذا المكان؟

في بيكادللـي يتبخر الاحتراق ويواصل بحثه في وجوه جديدة، لا يشعر المرء بـالخطر وينـتعش الرجـاء جريحـاً ويخطـو كـسكين إلـى الفـؤاد... نـساؤها يـشربن رحيـق أنـوثتهن و يحلـو لهـن اسـتعراض مفـاتنهن، وأنـا أشـم رائحـة العطـور العذبـة واسـترجع مـساءً مـن حيـاتي تـذكرت عطـراً أهـداه لـي فـي عيـذ مـيلادي.. هـذا الانعطـاف فـي الأحـلام والـرؤى أيقـظ جـسدي التـواق لضمة زوجي، واشتقت نثر شعري الأسود حولـه هائمـة بجنونه ، تزاحمت عليّ الصور، سروري الحقيقي حين تـسترجع روحـــي آباءهـــا وأجـدادها. أحبتهـــا ومـدنها وحكاياتهـا الـشعبية وأهازيجهـا، يحملنـي صـهيلها إلـى ومضة الحياة، لكنـي أفقت علـى صـوت رجل يضرب الطبل، خطف مني أحلاماً مشتهاة لمحت شفتي دكتور عبد الله تتحركان. أتراه يحكي منذ وصولنا هنـا وأنـا لـم أسـمعه. كانـت للحكايـة بدايـة ووسـط.. غيـر أن النهايـة صـارت لا دخل لهـا بنـا وكمن يطمئن نفسه قال لي:

- لا عليك، أعرف أني كنت أحكي لنفسي ومع نفسي أنهيت الحكاية.

في(أجورد رود) رغم السلالات المتعبة، هنود حمر، سود.، وبيض، وجدت نفسي بشارع له أنفاس عربية بصور وعطور عربية..هل جاءوا هنا ليبحثوا عن بعضهم، يجلسون في المقاهي لشرب الشيشة والمناقشات في أمور النساء والسياسة ؟ صرت الآن قريبة مني، وصار الكلام مسترسلاً والسمع نقياً وغلى في عروقي الدم. حكينا عن أشياء كثيرة ونحن نخترق الطريق وعلا صوتي أكثر. كانت لي رغبة إطلاق صوتي ليعرف جميع المارة بأنني عربية كلانا تابع البحث في الوجوه والعيون.. كل خطوة كانت تضيء لنا وتحصد اللذة. نحن على أرض إنكليزية وفي قلوبنا حلمٌ لصباح جميل. خليجيون مصابون بذهول لسحر إنكليزي، وفي عيونهم شبق للعربي. هو الأصل الذي لا يتجزأ.

غريب هذا الرجل العربي، يعبر المسافات كلها ليركض وراء امرأة تنضحُ حياءً، بينما البارحة وفي سهرة ماجنة رقدت بجانبه عشر نساء أجنبيات، الأبواب التي تفتح للخطيئة هي جناية الثراء وجناية النفط.

الوقت ظهراً. وقد أخذ الجوع مأخذه في أمعائنا، قررنا أن ندخل أول مطعم عربي يصادفنا لكسب الراحة وامتلاء الجوف (بشاورمة) دجاج وأخرى من اللحم مع المقبلات .

رغبت المشي في رذاذ المطر، انساق رفيقي لرغبتي، سار قربي صامتاً أو ربما أنا أجبرته على ذلك، استعذبت الصمت هذه اللحظات وتركت قلبي يبتسم كطفل أضاع لعبته ووجدها فجأة، الإشارات الضوئية حدقة ثالثة للمشاة ، أعجبت بالنظام العربي في بلاد الغرب وأحاطتني الفوضى في بلداننا ، داعبت شعري نسائم رقيقة لكني عانقت الدرب بحزن لا مفر لي منه فهو ملتصق بالضلوع ،(كشط العرب) الذي يسعى إلى الشمس كلما أحاطه الغروب . في أوجه العابرين أعوامي وأيامي، هل جئت هذا الشارع لاسترجعها أم أعاتب أمسي وغدي، خطوة باتجاه اليمين، خطوة باتجاه اليسار، ألجأ إلى دائرة ليس فيها طقسي ، ما أنا بجنوبية أو شمالية ، عراقية قاسمت النخيل عزها ، عشقت نهرها ووحّدته قاموساً للماء .
تعثرت خطاي وأنا أصفي الجراح من قيحها ، فأشفق علي عبد الله محدثاً قلقي:

- قرأت عن نشاط في كنيسة حين عبرنا الشارع، ألك رغبة الرجوع إليها؟

- جئت أرفه عن نفسي لا أبحث عن اللون الأصفر.

ضحك لتعليقي وأوضح رغبته في سماع المحاضرة.

مشينا حتى كنيسة في أجورد رود. واسترحنا حذو مصطبة.

في نهاية الجلسة.. صافحني أحد في عينيه من بعيد.رفع يده إشارةً خفيفة كي لا يعرفني أحد.. تركت السيد عبد الله باحثة عن مكان قريب من الحاضرين.. ودار الحوار.. كان عنوان المحاضرة من أجل عراق حر وصار كل ما في العراق للرهان، لا نعرف كيف ومتى يخسر ومتى يربح نفسه. كنا نسمع صوت فريسة ينتهبها المتبارزون على التحاور.. عرباً وكرداً بشقيهم المختلفين: شيوعيون وقوميون وإسلاميون.. وتصدقوا عليه بمبلغ زهيد.. كي لا يتسول.. وهكذا عبر العراق بشعبه المسحوق عبر الأفواه التي تبحث عن مكانها بعد أن يتحرر البلد من طغاته، لا عن مشروع مشترك لنجدة البلد!!

لم أجد أحدا يتكلم باسم الشعب ولا باسم الجماعة.

كيف لم يخطر لي أن العثور على حل لوضع شعبنا

بات مخجلاً؟
تخيلت نفسي مغفلة معتوهة، وكل هؤلاء يصوبون رصاصهم نحوي.. مجانين يهنئون بعضهم على انتصار موهوم قادم.. وكل واحد منهم لا يملك السيطرة على عائلته أو تدبير شؤونها. تمتلئ جيوبهم ويشح البلد. اختلفوا رغم إجماعهم على كلمة واحدة. وتشابكوا مع الحضور، ثرثرة مليئة بالثرثرة.
صرخ رجل كأنه محمول على نعش: ككلم هراء.. هراء لا جدوى منه.،ثم ترك قاعة الكنيسة"هائجاً - شاتماً - فلحقته وأشرت لرفيقي بالخروج. .
جاء النقاش حاداً من أجل ثقافة حرة وتحت شعار الثقافة للجميع لم تكن الثقافة حرة ولم تكن للجميع.. بل هي الفتاة التي تتنكر لتظهر بزي آخر لعشيق جديد.
فالأحلام مجرد رغبات .. رأيتهم صلعاً يتهمون الباروكات.
لم يكن الفضل في ذلك للحرب أو للقائمين عليها،اختلفوا قبل أن يتفقوا، وتشاتموا قبل أن يتصالحوا، وتراجعوا قبل أن يتقدموا. هنأت الدولة، وهنأت الشعب ، وهنأت نفسي على مشروع مثقفيها وسياسييها، فكان للصمت مصلحة مزدوجة، وفتح لي

باباً للمراهنة حيث تنقصني الحرية وينقصني وسام بأنامل فنانة لا أنامل هشة، ليرسم لوحتي التي تتجاوز الكلام، يلزمني شاعر يعطي للعالم مفاتيح شِعره، لا يرث غيبوبة الدخول لمعصية الذم والشتم لشاعر مبدع مثله وأديب فقد الاتصال بالآخر.

انتقالي من رصيف لرصيف أهو مسؤولية الثقافة التي لا تلائم إلاّ ذاتها؟ أم مسؤوليتي أنا؟ أنا التي تصورت يوماً أن الموت من أجل الوطن هو الفصول الأربعة التي تهندس الرياح وتجعلها ثوباً ترتديه وقت ما شاءت وتدير الدفة برقابها.. لكن المكان مجرد صدى الأوسمة، قلت:

-سبحانك أيها الكرسي .. سبحانك .

- لكزني الدكتور عبد الله:

- - لا يجوز التسبيح إلا لله.. موهيك بيئولوا؟

وضعت أعضائي في رمادها وقررت العودة .

- 17 -

في الرماد..
أحلام نبيّ يتنّسمُ عطر الشجر
لم يكن واهماً..
لكنه يحلم بالأرض
مالحٌ ماء الدقائق ، يؤذي الحياة،
وليس لي
إلاّ أنْ أعبرَ الهواء .

سافعل جدتي،، سافعل حسب رغبتكِ، لكن وقسم بعزتكِ كان حلما رائعا ليلية البارحة، وكنت بانتظاره لاني على يقين بزيارتك لي .
لم يكن حلما، بل كنت مضطجعة على فراشي أمتطي صهوة أفكاري وأرى بعيني كيف ستضحى زيارتي الى تمثالكِ، وماذا ساقول له، وكيف أشرب وجهك والتقط صورا تذكارية أمامك وتاجك الجميل على رأسك الشامخ.

كان لـي متسع مـن الأحـلام لأتخيل ماشئت منها والهو بفرحـي قربـكِ ، حتـى انـشق سقف الغرفـة إلـى نـصفين وهبطتِ كملاك على سريري، جلستِ قبالتـي ، أنـا طفلـة وأنتِ نخلة.

اعترانـي الخرس لمهابة هالتكِ ولم اقوى علـى نطـق ايـة كلمة، استدركت الموقف وقلت لي:

- يـا ابنتـي.. دعـي الـورق لـي أنـا سـالتقطه وإن اذرتـه الـريح، فأنـا أعـرف لغـة القلـب ولا حاجـة أن توصـلينها إلى المتحف، فانا هناك للجميع، وهنا لكِ وحدكِ.

سـافعل ملكتـي المبجلـة،،فإن نـداءاتك شـرفة أنتظرهـا واستجاباتـي لـك هـي بمثابـة الـصلاة علـى ضـوء القمر.

***

فـي الـصباح .. بعـد وجبـة إفطـار شـحيحة وممّـلة. أربعون يوماً والبيض المسلوق يكشر أنيابه في الـصحن الورقي.. جلست على طاولة قريبـة من النافذة، ورحت أؤمـل نفسي بأمـل مـصطنع فـي زمـن حـافٍ... وحـين تُعرض أمامي مباهج قديمة.. أشعر بأنـي شـجرة منعزلـة ومحـاطة بالرياح.. وضعت الخطأ علـى الخطأ وجريت

ببطء، شاردة الذهن لم أنتبه لصيحةٍ من شخص أو بالأحرى من شخصين :
- اسمكِ مكتوب ست سكينة.
أما العوائل فقد هرعوا متعثرين بخطاهم. كان النهار صغيراً والفرحة في العيون مستبشرة بنهارٍ جديد. العائلتان خاصتي. كانتا فرحتين بمدينة (ليدز) بعد أن رفضوا مدينة (كلاسكو) وذلك لبعدها ولبردها الشديد، استطاب لهم أن تكون مدينة ليدز البديل.
العرب والأفارقة والصربيون فقط يرحّلون لمدن بعيدة. أما الايرانيون والهنود والباكستانيون فيكون نصيبهم المدن القريبة والبيوت النظيفة والكبيرة هذا إذا لم يجدوا لهم مكاناً في لندن وبالذات قرب أقاربهم.. والسبب بات معروفاً لدى الجميع لأن الموظفين المقيمين على إعداد قائمة المهجرّين هم من الجنسيات ذاتها.
الليلة.. لستُ يائسة أو حزينة، بيَ قوة لأواجه حزناً جديداً. فأخذتني غبطة وفرحة بقوة اليأس.. وحين غالبني المساء ببرد رقيق ، أثلجت قدماي، وشعرت

باني غطست في ماء بارد. لم أتصور بأن جسدي جاهز ليتحمل راسي.

حاكيت البعوض والصراصير:- إنها آخر ليلة. وتأملت الغرفة بعينين فاترتين.. ما كدت أضيع بين كفيّ إغفاءة صغيرة.. حتى هززت كتفي:

- إنها نشوة المساء.. فكوني جاهزة.
- فتحت عينيّ ببطء وفركتهما بيدي كطفلة تستوضح وجها.
- جلست قربي تتلمس يدي حتى كدت ألمس نبضات قلبها تتسرب إلي بدني من خلال أصابعها الراجفة، أحسستها ملتصقة بي. أحرقتني حرارة جسدها ولم أتحرك. سحبت ملابسي كأنني في حلم اليقظة أو يقظة الحلم. حاولت أن أتهيأ للرحيل. لجأتُ إلى حقيبتي
- المتواضعة ، فتحتها ، فاضت منها أنهار ضفادع.. ملأت الغرفة والسرير . نطتْ علي من رأسي حتى أخمص قدمي.. برازها في شعري . دخلت فتحات أنفي ، رحتُ أتنفسها وأتذوقها فوق لساني ، سمعت نقيقها المتلذذ بحنجرتي سرت رعشة الروح الخارجة من بدنها وأصبح بفمي مذاق سبق

الموتِ ، نهضتُ من فراشي مذعورة ، أحسستها قربي ، كان الصحو قبيحا وقت مسكتْ يدي، هدّأتْ من روعي وناولتني كأس ماء.

- لا عليكِ. كنتِ في حلم

- لكني لم أكن نائمة؟

- أحلام اليقظة أقسى وأعنف من أحلام النوم.

- قلت: لكني رأيتكِ في الحلم.

- بل أنا هنا معكِ في الحلم واليقظة.

مدتْ يدها إلى حقيبتي، وراحت تعبث بأشيائي الخاصة.. سحبت دفتري وقلمي وشرعت تكتب وأنا أتطلع إليها. مضت ساعات ونحن في هذا الوضع.

ولما بزغ الفجر انصرفت وتركت لي أوراقها.. وعلى حافة السرير جلستُ أقرأ بفضول لأتعرف عليها من خلال الرسائل.. ورحت أخضع لحروفها.

- 18 -

مقصلةُ الأمس
رصاصةُ اليوم
لا تتأخري
قنبلة الغد.

**

سيدتي الحزينة:

أظل صاحية، وأنام على حد قلقي، أتسلل إلى حواسي أجلد بها بعض تصبر، وأستطلع وجه أختي أم عوني في دائرة قطرها قلِقٌ.. وأشعر بأن الموت يمشي معي. يحرك قدميه عَجلاً، فأراه من خلال نظاراتها ملطخاً بالدماء.. وفي نظرة أخرى أرى روحي فراشةً صاخبة لها رغبة التحرر من ألوانها، تنفرد بإيقاعها متناغمة بلوحة أنجزتها حدقتي الملبّدة والمتواصلة مع الفراغ. أتجه إلى شكلي مندهشة مني وأدخل حدودي مشوّشة . أستنجد بركن يعصمني مني، أتحدث اليه خالصة النقاء

فأجده اشتهاءً محموماً بهذيان الرغبة وبانفعالية القوة يُدخلني مغامرة تبادل النظرات.. فأترك الهواء يعيدني إلى واقع مريض، لا بأس من اغتصاب كلمة من فمها أستعيد بها انتمائي لسرير يرقد عليه قلب مريض وضلع متورّم بقيحه، ولدي الذي يغتسل بمرضه ويتغطى بشرشف أبيض وحمّى تشهد على قسوة العالم وتتنبأ بالمصير القادم..

أحاول تهدئته، أعبث بشعره، أحدثه، أقبله قبلة تحرسه، ليبقى مشرقاً لي.

الأمصال شحيحة والثمن يدرك لعبته ويقتلع أجنحة صباحاتنا ليستعيد شركاً آخر يضمد به مرضانا . أبقى متقدة. أبلل شفتيه بقبلة ندية بنارها، أمسح عرقه والعن محوّل الكهرباء ، أغطس منديلا في ماء بارد وأتركه يحضن جبينه في محاولة استجداء نسمة باردة، أسمع لهاثه وأشم رائحة روحي المذبوحة مليئة بالمشاهد بدءاً من المستشفى وانتهاءً بمنشار يقطع أوصالنا ويسحق عظامنا.

أختي أم عوني تتجاوز نفسها وتتطلع في مرآة النسيان علّها تجد وجهاً ينام بشغف طفولي، تلامسه وتتركه

يلهث بلذة إلا أنها تدخل بشكل طارىء إلى صمت مخيف.
كانت الرحلةَ غياباً يخنق الصوت.. بعد أن عجزتُ عن معالجة ولدي في البصرة، أرشدني أغلب الأطباء للذهاب إلى بغداد. قصدت ساحة سعد.. الحافلات مزدحمة بالمسافرين والجنود والأشياء الخالية من الحياة.. الآباء الذين اكتشفوا أنسجة الحميّ وتوضّأوا، الملابس البالية، والوجوه المصفرة والبطون الضامرة.
ارتمت على صدري أنفاس أمي والحافلة تسير مترنحة، طوت عنقي ولازمتني الصورة مستأنسة بصلاة روحي والكآبة الموشومة بوجوه الركاب طهّرت نفسي من وجعها.
ولدي يئن.. والصورة لا تبتعد عني فردّدتُ:
- سيئنّ الماء يا أمي إنْ لم يكتشف همسك.
في محاولة بائسة أبعد الصورة. ينساب الصوت خضرة في حجرات عيني.. أشم نسائم الصيف وروائح الرطوبة التي امتزجت وحرقة الشمس وتآمرت مع نسمة قائظ. فغطّ الراكبون في نوم عميق.
تملكني الجوع التلقائي. لكن الوقوف المفاجئ كل ساعة يربكني. والسيطرات العسكرية توقظ الركاب

وتزعجهم . في داخل الوطن ، يجب أن تحمل ما يثبت كونك عراقياً كي تطرد عنك حيتان النهر.

أسند رأسي إلى زجاج النافذة وأمنح نفسي التفكير بشيء جميل، أتذكر ثانوية العشار والأفكار التي كانت تراودنا ونرددها بأن الأنبياء ليسوا قادة روحيين فقط، بل قادة سياسيين . يبيّنون للإنسان كيف يجب أن يكون، ويختارون له البدائل. إنهم يشاركون في فكرة بناء تاريخ له معنى.

أشعر أن أفكارنا تخرج الآن على شكل سؤال له رائحة قش يابس يختار أسماءه ويدون السنين.. فالسياسيون الآن يتوهمون بأنهم أنبياء والنبي فوق كل شيء. و يأتون بأعاجيب الزمان، بينما هم لا يملكون روحانية النبي ولا حكمة السياسي.. لذا تتساقط أشلاؤهم في جبروتهم ويصرخ الوطن بالتذمر.

أرجعتني إلى واقعي امرأة مربوعة افترشت أرض الحافلة بعد أن امتلأت المقاعد بالركاب. أخذت طاسة قديمة شربت بها ماءً وحمدت الله ، عباءة تتشرب كدّها اليومي، خبز منقوع بكأس ماء، بحركة خفيفة جمعت الدجاجات المربوطة على بعضهن وأدنتهن قربها بعد

أن وضعت لهن ماءً في غطاء علبة فارغة. كانت تتمهل وتسحب نَفسَها بصعوبة.

صعدت طفلة في وقفة الحافلة عند المفرزة. شارفت العاشرة، رثة الثياب وشعرها الأصفر أشعث ووجنتاها الحمراوان المحروقتان بحر الشمس برزتا من الوجه. حالة جديدة لاستباحة الطفولة باسم الجوع. أومأتُ لها لأشتري لولدي كعكة.. تحركت قليلا ومالت واهتاجت حتى أزبدت. فأصابتني عدوى الهياج وفركتُ إصبع الرجل الذي تحرش بها حتى ازرقّ.. وعندما دسستُ عشرين ديناراً في يدها.. قبّلت يدي وضحك الأسمر في خدّيها. صاح أحد الركاب:

- آه يا بلدي.. ثم آه.. ثم آه.

أفاق صبي على لغة الجوع فأسكتته أمه بخيارة. صاح الرجل ثانية:

- يا رب الفقراء والأرامل والأيتام.

غفا الطفل في حجر أمه التي راحت تردد بصوت خافت.

- لو نامت عيون الناس عينك ما تنام.

سمعت صراخها الأعزل وأدركت حكاية صدرها.. الساعات تجرجر بطأها.. والدقائق تزحف بسكرها..

سررتُ عندما سمعتُ صوت رجل :
-عَمي هنا نازل.
جبهته متعرجة بتجاعيدها ونحول جسده يكشف عن حصار طاغٍ ومرير. نزلت معه ورحت ألوح بيدي لسيارة تقلني.. صعدت التاكسي المتهدل الأبواب، مخلوع كرسيه الخلفي مما دعاني لمزحة بريئة مع السائق:
-- هل طال الحصار سيارتك؟
ضحك :
-- هذه مأساة الدهر.
قلت: والفقر؟
- دعيه يطهّر قلوبنا.
- طيب . والظلم؟
- الحماقة جميلة أحيانا كونها تتوّج بالحكمة.
- وهل أنت شاعر؟
-- شاعر وأديب ومدرس لغة عربية وسائق سيارة متهدلة كما تقولين!
قلت: كلنا في الظروف نفسها وإن تعددت. فأجاب بعد ان دخل الشارع الفرعي: تعددت الظروف والخيبة واحدة.

ما الذي دفعه لهذا القول الصريح، والكلام في هذه الأيام محرّم حتى بالهمس، الناس تخاف من وشاية الهواء والوسادة. وتخاف الحلم الذي تخرج منه بأطياف من بخار.

في ساعة وصولنا بيت أختي أشرت له بالوقوف فتردد:

- هل أنت قاصدة بيت عوني؟

-نعم إنه ابن أختي البكر.

أشار الى الأرض:

- هنا غيث نقي ودماء أزهرت ورقاب انطوت وجثث أحرقت. وهنا الدماء برتقالية والدموع حمراء والحليب أسود.

- أجل يا ولدي لقد أحرق عوني مع الثائرين .. فهنا نغمة ليل ونظرة تشبه الروح. ألا تدري أن ابنها الثاني أذيب بالأسيد؟

قال: كيف ينام الليل محمولاً على أكتافنا؟ هذه الأرض السكرانة بأبنائها.

- يا بني ضع عناءك في صدرك وارحم نفسك.

- لم نعد نخاف يا أم.. استدركت قصده وقلت:

- أم سند..

- لم نعد نخاف أبداً، فالليل والنهار لا يتقابلان أبداً.
فتحت لي الباب مجللة بسوادها.. عانقتني وبكت. اهتز بكاؤها ، امتد جسراً. ثم تراشقنا بنارنج الأمومة، وظلت زوايا العيون حائرة.
قالت: - ويح قلبي.. رُمى عوني بالرصاص أمام عيني و التوت رقبته، ولدي البكر دون شهادة أو كفن. كان اللقاء أحمر والقميص يرقص رقصته الأخيرة. وكانت القضية أنثى غجرية تدندن خجلاً و تنمو في الأرحام.
قلت: - شهادته دمه، كافورة ترابه، وغسوله رفضه .
لاحت أمامي ذوائب أمي زمرّدة تحوم حولنا تهزّه، تعيد القطار الشارد، وتدوّي.
صحيح أني أدمنت رائحة الأدوية ورائحة فم ولدي المملوءة بالمرض.. لكني لا أدري لمَ أرفضها اليوم.. وكأني صحوت للتو من سجن دام سنين.. وبينما أنا أستعيد الرؤية الحقيقية لواقعي، سمعنا صراخاً مدّوياً . فاهتزت أختي هلعاً:
- ربما صندوق جديد مرّ في العنبر.
- مازلتِ تسمّين التوابيت صناديق.

ثم أردفتُ:

- إن التوابيت لا تدخل المستشفيات. . هنا نقالة فقط.
- لا يهم ماذا أسميها، المهم أنها تنقل والسلام.

صارعت صوتاً بداخلي وتعثرت قدماي بخطواتهما ...تجاهلت أم عوني قلقي ونهضت متباطئة أو تتصنع التباطؤ.

- لا تقلقي، إنها جنازة . أصبح من المألوف سماع العويل.. وببساطة يدخل المريض ماشياً على قدميه ويغادر محمولاً على الأكتاف.

وقفنا عند باب الغرفة ،مر موكب حقيقي.. كانت الملكة طفلة والمراسيم حزناً.. رغم أني لا أقوى على حمل جسدي لكن الأفعال والحركات تأتي لا إرادية ثم يأتي الفراغ يكسر عكازه ويؤنسنا بصراخه لنرقب كذبة وقفت على شرفة سقطت في الزحام.

نصلي لأمومتنا، ورعشة غامضة تنهار مخبوءة بجهاتنا العمياء..

تدحرجت دمعة ناصعة، مزحومة بأنات ولدي واستغاثاتي بدواء عاقر وطبيب مصلوب بوقت أرعن.

أتضرع لمدينة أراها زجاجة حارقة. حتى إذا فرغ صبر صباح مر وجاءنا صباح أكثر شراسة ومرارة

تأكل الكتف وتترك الجلدِ معلـّقا علـى عظامـه ، دبـابيس ومسامير تُغرز كل حين . هكذا كنت أحس الحقن وهـي تعبر جسد ولـدي.. يحرسني لـون أبـيض تاركـاً مساحة صـغيرة تـضيء، تـوهمّي.. أنغمـر بعرقـي وحـرارة المكـان، وتـستحيل خرائبـي إلـى ألـوان البحـر حين أبـدأ بالصهيل، لا بدّ أن أقوى على تعبي.. فمن لولدي بعدي لو حصل لي مكروه؟ من لأختي يطمئن ريبتها ويمسح عرق أساها؟ ترى ..هل ترانـا الدموع؟ وهل يشعر بنـا الألـم؟ ترافقنـي مـن مدينـة الحلـة إلـى بغـداد غامـضة بصبرها راغبة بشفاء ولدي ليعوضها عن ولديها ، عليّ أن أرفـق بهـا لأنهـا ترتـدي أثـواب حزنهـا وتختفـي بانطوائها .

الغرفة بارد وجهها، ومتواطئ مع محوّلـة الكهربـاء.. شعرت بوجهي يعجن صلصاله.. دخول الأطبـاء أحسه كالسلاحف .. ورائحة الأدويـة تذرُّ فـي جفوني التـراب. الأطفـال الـذين أنجبـتهم أمهـاتهم لحلـم المستقبل..يقـف الدواء على إنفاسهم كعويل الريح.. والعنـابر علـى يقين بـأن مواجهـة المـوت مهمـة صـعبة.. تـصمت مجنونـة بـضبابها ، يرافقهـا أطبـاء مقهـورون. المكـان يـشملني بأفكاره والأشياء غير متجانسة ، ممرض يسحب الدم

من وريد ولدي، بضعة صور إشعاعية بيد ممرض آخر.. ثالث يضع التقارير داخل ملف.. أحاول أن أشاغل نفسي وأطلب من أختي جرعة ماء. قلبي يدق سريعا ، كانت الساعة الثالثة والنصف، والدكتور وحيد يفحص ، والنبض يتسارع ، وحشمة ووقار على شاربه.. فلماذا يقولون إن العراق لا أحد له؟ لنا مثل هذا الطبيب الذي تمنيت أن نملك مثله مئة.. مئة فقط ويصبح البلد في خير. رجل كل همه حماية مرضاه ورعايتهم وجلب الدواء لهم حتى إذا اضطر إلى دفع ثمنه من جيبه.

كنت على ثقة بأن ولدي سيشفى على يده.. كان يتحدث بهدوء ويميل لسَند يلاطفه.. منذ أن جئنا هنا وهو ينظر لي باحترام وتقدير وتعجبه آرائي وأفكاري. قلت: الغرفة موحشة دونك. هل أراك بعد انتهاء الدوام يا دكتور؟

أعدت أختي الشاي وقدمته لنا. فتركت أصابعي تحرك الفراغ وأنا بين القلق والريبة بين نتائج الفحوصات وبين نفس ولدي المتقطع.

وضع كوب الشاي جانباً بعد أن رشف منه رشفة صغيرة .

- بكل سرور ، سأزورك لاحقاً.. أعتقد بأن لديك أسئلة حول التحاليل ولك رغبة في الكلام عن شيء ما.

كل مريض أحب الدكتور وحيد وكأنه يعيد فتحة الضوء.. بالنسبة لي أحسه قريباً مني وكأني أعرفه منذ زمن.. حين عاد إلينا بعد انتهاء دوامه، طلبت منه مشاركتنا صحن رز وسمك.. بعد محاولة فاشلة في إطعام ولدي قليلاً من الحساء،ومسحت بعض الإستفراغ على ثوبه، بللت شفتيه بقليل من العصير وجلسنا نلوك لقمتنا على مضض.

تطلع في وجهي:

- كأنكِ لم تهجعي البارحة يا أخت وصال؟ عيناك متورمتان تظللهما زرقة داكنة.

- بل لم أنم منذ زمن، كل خلية في جسدي ساهرة، وأعصابي تطحن بعضه، يبقى رأسي ساكناً في مشهده الليلي والحلم ذاته يستفزني فينطوي جسدي على أوجاع سود... وحكيت له قصة الضفادع. ثم قرأت في صحائف وجهه ابتسامة فاترة.. واستدركت دهشته مقاطعة:

- لقد فقدت بوصلتي منذ أن تركنا زوجي محمود.

قاطعني:

- البوصلة الآن في يدكِ. فالمرأة المدركة تكمل مشوار زوجها.

تفحّص وجه ولدي ثم أشعل كلمات تتعثر: ستشفى يا ولدي.. بيوتنا لم تزل نابضة بألف قدم.. ستشفى .. ثم استدار نحوي: أخت وصال ما الذي يزعجك؟

بماذا أبدأ.. التقطت نظرة تكشف داءً دفيناً، أيقظتني جراحاتي.. . أغمضت عيني إغماضة لينة.. كيف أصف نفسي وأجدد أملاً متهرئاً؟ لمجرد أن أدّعي التفكير وأحاول أنْ أستعيد بعض قوة أجدني ملتحفة بالجنون. فأضطرب كشجرة متصالبة، أدخل أعضائي أنزع أعوامي عاماً بعد عام وأتحدى صحراء تحاصرني، مترددة متباطئة.. أنبتُ من ضعفي حقلاً.. امرأة خفيضة الصوت لكني كالزوبعة.

شمّر وحيد عن ساعديه وتناول تفاحة قشرتها له أختي.

- أظنك أبحرتِ بعيداً. يا لله دعينا نبحر معك.

شعرت بأني أعجن لحظاتي برمادها وأبحث عن دقائق مجلودة. حتى سمعته.

- لست وحدكِ. كلنا معك بالإحساس ذاته، وبالأوجاع والصرخة نفرك أكفنا استعداداً لشرارة قادمة.

قلت:

- أين هي الشرارة أين؟ خذ هذه أختي ضحية إحدى الشرارات.

دخلت علينا ممرضة تحمل لائحة طويلة أدرجت بها أسعار الأسبوع القادم، كنا نتوقع بقاءنا أسبوعاً فقط ودفعت حسابه بالأمس. لكن بعد قرار الدكتور وحيد إجراء عملية جراحية عاجلة كثرت الطلبات، صغيرها وكبيرها، غرفة العمليات أجرها لوحده يكسر الظهر ، أعدت النظر في أسعار القائمة.. وقلت:

- والهواء أليس له أجر؟

- إنها الدرجات العليا من الرقي والمتاجرة بأرواح الناس. كيف نصبح أكثر التصاقاً بالشارع ومن أية زاوية ننظر؟

اقتربت مني: أرجوك سيدتي وقّعي هنا وإلاّ نؤجل العملية لحين الدفع.

قالت أم عوني: ومتى الدفع؟

- قبل الجراحة سيدتي..

دون أن أبدي أية معارضة وجدتني أخط اسمي ثم التفتتُ إلى أختي:

- أيها الخبز أبن الكلب ماذا يفعل المعدم.. يأكلك أم يضاجعك ويمشي بالمقلوب؟

لم أطرح عليها أي سؤال، فقط شكرت السيد وحيد لاهتمامه بنا وشكرتها وشكرت مدير المستشفى على رحمته، ثم ذرعت الغرفة طولاً وعرضاً:

- هل أرقص يا ربي؟ نعم أرقص، هذا زمن الرقص، صدقت نبوءة محمود ، لنرقص.. فردت ذراعيّ متهيئة للرقص. نهضت أختي واحتضنتني بقوة: غداً سأذهب إلى الحلة وأرهن ذهباً أو أستلف ونكمل المبلغ الذي بحوزتك..

- 19 -

لم يُبصر أحدٌ في مرآته
يعلم مسبقا بأنه لن يجد أحدا.

**

سيدتي الحزينة:

أقارع لحظتي واستجيب لنبض القلب، وأنا اكتب والورق يستجيب لسلطتي. كتبت للذين يجيئون حاملين نداء المساء وللذين يذهبون دون أن يعرف عنهم أحد وللنائمين الحيارى. بأسمهم وباسم شعبي حلُم الورق أن يفتح باباً. أذكر اسمي أدوّنه في ذيل كل رسالة، اسمي وصال وإذا لم يسمّني أهلي وصال هل سيبقى اسمي وصال ؟ لأني بين الحزن والحزن أصل إلى ما أرادته الحكومات لنا.. لست أدري هل أنا بدون اسم وهويّة؟ ولماذا الهويّة والجنسية؟ إنها مجرد أوراق وأنا فقط الإنسانة. أنا الكلام ، ابتداؤه وانتهاؤه وأنا الرداء والشمعة.. يتراجع الهواء محملاً بالرطوبة، ويرجع

الحبر إلى قلمه كرجع الدمع إلى العين. انطفاء الشمعة أزاح عني هوس الكتابة فوجدتها مجرد دموع في إناء، والفجر تفتحت عيونه. هفهفت حمامة الأسبوع الغائب على شباكنا.. دخلت الممرضة حاملة ملعقة دواء وجرعة ماء.. استفاق الورد الذابل برغبة في البكاء، ثم شرب دواءه دون قناعة. ومثل شمس طفلة أعطاني ساعده لأضمها وأغمض عينيّ لبعض الوقت.

فيما أنا أشعر بلسعة يده، صَحَت أم عوني لأداء فريضة الفجر، ثم ركضت هادئة كأبواب بيوتنا، سحبت يدي بهدوء من يد ولدي سند وعدّلت من وضعي. أحدق في السقف،، كلما أرتدي غفلةً.. يرتد الوجع إلى قلبي يدهنه بزيته ويغفو.. تطلعت لساعة يدي.. إنه موعد الأطباء، وسيأتي الدكتور وحيد ربما أجد في عينيه بارقة أمل.. طلب مني الصغير أن آخذه للحمام. اغتسلَ وتشهدتُ في وجهه.. على الأرجح كنت شاردة في وجع أسطوري.

اقتلعتني من جذوري أغنية عراقية (َ آنه أمك يا زين) فشددتُ من عزمي واستبدلتُ ملابس ولدي.

يمر الانتظار على فراش الدقائق. الوقت حالك، لا الديك يصيح ولا الفجر يندف ثلج شهريار ويُزيخ عنه

الـشيخوخة.. دخـل الـدكتور ومعـه طـاقم الأطبـاء والممرضـات، لـم ينظـر إلـيّ كعادتـه ولـم يلاطـف الصغير..جاءنا حاملاً خبراً سيئاً.. شعرت بأني طاعنة العزلة فأمطرته بالأسئلة: عن كذا وكذا وعن .. عن..

- أرجوك أفصح القول، وماهي المشكلة الأساسية؟ ولمَ أنت واجم هكذا؟

قال: للأسف الشديد، القيح منتشر وقد وصل الرئة.

- وبعد ماذا .. ماذا بعد؟

- يجب الإسراع بإجراء الجراحة. ثم خرج مع طاقمه..

تطلعت لأختي، كانت تعد على أصابعها وتهمس.. كنا نايين كلٌ لها انتزاعها ورجفة صوتها. قالت:

- منذ اللحظة وأنت بعيدة تائهة .. لا عليك كوني رؤوفة بنفسك. حبيّها وكوني قوية.

- ومن أين القوة .. ولدي من شدة الحمّى يهذي .. والشبابيك تهذي بسكون إسفنجي وحرقة قلوب الناس تهذي.. وتشير إلى نافذتنا؟ أتراها تريد فجراً من غرفته المحمومة؟ لا ضير أن ارتأت نسمة من صقيع وصنعت له دواء يضع الجراح على الجراح ويقفِ خشبة تالفة تشدها حدود صمّاء.

في نبضات القلب تتركني الأيام أسحن خطوطي

وأتضاءل، كم مرة متُّ، وكم مرة كدت أتعرف على نفسي. وجبين ولدي ينضح عرقاً. هرعت صوب الممرضات ، أسعفوني بطبيب مقيم استنجدت به رغم قلة خبرته. أختي غادرت إلى مدنية الحلة والتيار الكهربائي أسند الحر إلى الجدران، توكأت على مراوح يدوية..أفضح صمتي ، وأشرح بملء إرادتي لامرأة بداخلي عن رحلة تتلقفها الأفواه فكل يوم صرخة وأم تنوح والشوارع حبلى والمرض حبل سرّي يخنقه الأطباء العاجزون . بعد أن هدأ ولدي إثر حقنة مهدئة، تمددت في السرير.. ما الذي يعني لقلبي لو بقي صامتاً أو نزّ باحتمالات الكلام.

حديث المقاهي والنارجيلات يطول ويقصر، يحدثنا عن رائحة المعتقلات والإبادات الجماعية وأقزام عارية متيقنين بوقت حامض مثل أرياقهم.. الوقت تذكرة تعرّي عزلتنا إذ لابد من أن تكون مساحة للخوف، وهل يخاف مطعون بالصدر لدغة عقرب؟

الصحف وغيض العالم، وحديثهم الرائب بحيضه، وحصى الصوت الفاجع يرتد إلى لهاثه.. تصمت الحناجر مزرقة وتنام في حلمها الدبق، تبقى الفاجعة.

- هل تركوا لنا الحلم؟

سألتْ أختي ووقفتُ كمن يستوضح شيئاً: وإنْ لم يتركوه. تبقى الذاكرة مصقولة، فنحن القلم الذي يحصي الشك إذ تنتشي النوازع، ما أفظع جسارتنا ونحن نلعق غول الماء، ونحن أبناء الماء نشرب الماء المالح والملّوث.

لماذا يؤلمني الضحك إذاً؟ إنها أصفادنا المتوسلة بنجم شبحي، أول النهار مليء بالجمر الذي يجلدونه حتى يَدمْي أو يغتصبون وجه الماء.

- خاطبتُ : - لم أرك وأنت داخلة.

- كنت منهمكة بالكتابة، وأنا أعرفك حين تكتبين، تشتعل الأوراق ويصبح كل شيء أعمى أمام القلم.

فرحتُ بمجيئها وبكيت بكاء الأطفال، فقد شعرت بالضياع بعدها. حين أقرب ولدي من صدري، تأخذني غفوة عذبة ورغبة في نوم.. أضمه فأشم رائحة زوجي :

- رفيق الأمل الأخضر وصديق النار ألا تشفى! نحن في انتظار موعدك الآتي. أرغب أن أراك يا ولدي على وجه الزمن تضع تاريخاً جديداً، تاريخاً لم يمر بكذبة شربناها صغاراً ، تاريخاً يمطر. خلف العذاب الجميلْ. ومن الصد والموت يخلق إنساناً يعرفه الله الساهر

والعين التي لا تنام.

نفترش الأرض ونلهو بأحاديث مؤلمة ، وربما نجد فسحة لمزحة طارئة.. تجلس أم عوني قربي ، نبع يقرأ الكلمات وأنا أكتب، نبحث عن مخبأ نضم فيه تراتيلنا. وفوق صمت مخدتي أحن إلى صوت زوجي ووجهه يحكي لي عن ليلة خميس، وعن نسيم بارد يرفع أصابعه نحوي..، كيف يمكن للقلب أن يدين نبضه؟ صرت أخاف نبض القلب وأخاف أن يخذلني الملح، ويضيع ، يا امرأة الأشرعة تصبّري ، فأصطبر وأضطرب، وتبقى حدود الصبر حيث لا حدود ولا ميزان.

- نزعت شيلتها وبللت ثوبها بقليل من الماء، ثم حلقت صوب السقف والسبحة بيدها:

- ارحمنا يا رحيم، أعطنا نسمة.

- حاولت أن أرسمها على رسالتي الليلة. قلبت الصفحات وقرأتها واستعجلت، والليل يقف على الشرفة، وضجيج ينشلني مني.

- ما الذي يحدث، وما هذه الضجة تطلعنا من باب الغرفة المفتوح لنصفه. كان شجارٌ بين الممرضات وإحدى النزيلات. وهناك رجل يقف خجولاً رغم ساعده

المفتول وشاربه الكث.. واتضح لنا بعد فترة أن سباب الزوجة لإحدى الممرضات بسبب تحرشها بزوجها الذي رأته مصادفة في وضع يثير الريبة.

- ضحكنا جميعاً ودخل كل غرفته.. رغم الموت والسراب هناك من يجد مساحة لجسده. قالت أم عوني:

- هذا زمن العناكب. ابن الكلب. حتى هنا غزل وتحرش في النسوان! طول وعرض ومراهق؟

مزحت معها وعدلت شرشف السرير:

- هولاء مجرد أوساخ.

حين واصلت الكتابة تذكرت لعبة الكراسي، بين الورق والقلم. احترت، أخاصم من وأتهم من؟ فتجيء أدوية تالفة تسقط أيام مدينة عدالتها معطلة وأرضها مطرزة بالوهم.

بينما الاحتفالات بأعياد الميلاد غانية تكتفي بخمرها وخمارها المغموس بالدم، فيمر قول الدكتور وحيد (كيف أوصل الماء لصحراء المرضى) .

- إنه الصراع من أجل دخول الأبواب الخاطئة.

ثم أحذره من صراحته، وحين يعاود الكلام ينظرني نظرة خاصة:

- من العيب أن نرى تراثنا يسبق نادليه، لذا لن نسكت.

أحمد ربي على سماعي صوتاً يجعل قواربنا تموج ضد الطوفان. لم تتغير الأشياء الحياتية فقط، بل الضمائر الهشة ، وبات الثراء المتسلق على أكتاف الآخرين غراباً ينعق. لكن هناك أيضاً من تقوّس ظهره، ومن وقف مجهولاً أمام مراياه، والوقت بحاجة إلي وقت ليتأهب لنفض الرماد. مازال هناك من يزيح الحجارة عن قبور تتثاءب؛ وإن ذهب عوني فالأرض تلد ألف عوني والرفض سيجيء؛ من الأرض ، من السماء، من النخيل، المهم سيأتي وخارطة الرقاب وحدها الراية. وسنعطي أطفالنا الحلم والدفتر ، القلم واليقين والحب والرياح، ونقول لهم اعصفوا حتي يمرض القهر ويغنّي الرفض. ما أدهشني هو دخول تلك الممرضة الخبيثة التي تتحايل لدخول غرفتي ساعة مجيء الدكتور وحيد. كما أجدها كل مرة مهيأة لقول ملموز أو مشحون بالغيرة و كلما لمزت أو همزت تتملكني رغبة في الثورة، لولا أن يشير إلي أن اهدئي.. فتبدو الغرفة دفتر ملاحظات يدون أخطاءنا وأفكارنا. وربما تهيأ لها بأني على علاقة غرامية مع الدكتور وحيد، أو ربما هناك ما هو أخطر من الغزل وكل يرى الناس بعين طبيعته.. فأمثالها ينمون مثل الحشرات.

الوقت موحش يرسم فراشات متمردة وسجائر تنام في رمد العين.. غداً سأمارس فرحي وقلقي، وسأقطف ما تبقى لي من عمر باقة آس مجدولة لوسادة ولدي. غداً بعد أن تُجرى له الجراحة سيشفى، وتشفى أسئلة لتعود العافية تسألني عن اسمي وسأجيب، بعد أن البس الأرض وأرتدي
النهر.

- سيدتي منيّ علينا بمكرمتك.. ولدي يذوي.

هذا ما سمعته من أختي، وأنا لا أدري ما أقول وولدي مجرد نفس يصعد وينزل بصعوبة.. سعال واختناق، أحاول أن أستعيد تفاصيل سابقة أثرت في نفسي، لا أستطيع أن أصل إليها بحرية. فثمة حقيقة مبهمة . ثم أين الدكتور وحيد؟ لماذا لم يتصل بي أو يأتي إلى غرفتي؟

رأيت ممرضة تهبط من السلم ويبدو أنها أخذت مناوبتها منذ دقائق.

- سيدتي: هل حضر الدكتور وحيد؟

- سيحضر والمحولة تم إصلاحها؟

حمدت الله ، قلت هذا وتلذذت بدفء شيء ينقصني ، أسديت الشكر للسيدة محوّلة: يا ملكة الضنى والعذاب

اعذري لي شتيمتي.
بدا باب العمليات هو باب الفرج... ثمة بقعة وهم تفسد لحظتي وقلبي يخفق بظنونه.
الرماد يعبر وجهي وجسدي ويصل كهوف الروح، اللحظة مليون امرأة عارية.. ما يعيدني إلى ذاتي هو صوت أختي المتهدج :
- متى يا رب ، رحمتك يا رحيم.
شممت رائحة الأحبة في صوتها، أمي وأبي ومحمود وعوني وتذكرت أسيداً احتوى شمعة عشرينية فمر الصمت يشرع ثوبه بجسارة ، أمي واقفة أمامي، وأبي يعدل غترته، اقترب مني بعروقه النافرة وابتسامته الطيبة كماء البصرة وبيده حلاوة اللوزينة و شَعَرَ البنات وقال لي:
- هذا لابنك.
كان صدري يرقص ويرصف النبض فوق النبض، ويبتلي بنبضات فوضوية ترغمه على اللهاث.
حين أخذ ولدي كانت العودة إلى بلاد الحواس منفى يستوعب صوره المتأزمة دون أطر، والغريب أني كنت متحمسة لأكون خارج نفسي.. خرجتْ ممرضة مسرعة، اقتربتُ منها فقد راعني قلقها:

- ما الأمر؟هل حل بولدي مكروه؟
- لا شــيء .. فقط المحولـة .. عطلت ثانيـة. وسأحضر الشموع والفوانيس.
- لكن ولدي .. هل؟
- لا، كوني مطمئنة . فالدكتور منذر يبذل أقصى جهده.
- منذر؟ وأين الدكتور وحيد؟
- لم يأت لحد الآن، وسننجز الجراحة بكل الظروف.
صاحت أم عوني :
- على بختك عيني جنريتر مو وكتها .
ها هي الفرحة البكر تتخلى عني وطفلي المريض ما زال يغلي.
ذرعنا المكان مئات المرات بينما الدقائق تمط أرجلها وتستطيل وأنا شاحبة موزعة بين فراغ العابرين وحزني وقلق الممرضات، وفوضى الأطباء ووهَن الأمصال والحر والعرق وهذيان المارّة. هيأت نفسي لشق الزيق وفوق شفتي هذيان حمّى وصلاة. غبت عن روحي، فشاهدت الضفادع تلعق جسدي كله وأم عوني مغطاة بشرشف كله ضفادع.
فتح الباب ممرض طويل ودفع نقالة ولدي ثم قال:
- الحمد الله إنه بخير. ثم مد يده، تجمعت حولي

الممرضات وعاملات النظافة ووجوه لم أرها من قبل وأيدٍ لم تمد لي العون سابقاً وأصوات أسمعها لأول مرة، والصراخ في عروقي يشل تصبري.

في شحوب الظلام تهيأ لي أني رأيته، بل سمعت خطاه، جاء ليمسح جبهتي، الساعة الواحدة صباحاً والحصى يتهالك على ما تبقى من صبري وأم عوني تنز ألماً مع كل حقنة تُزرق في جلد ولدي وملائكة الرحمة شياطين.. في المساء تتوالد الأوجاع ، أصوات المرضى تملأ المكان بالأنين، خاصة بعد أن يصحوا على آلام الجراحة، والطبيب المناوب منشغل بمغازلة طارئة. كانت رائحة أمي ومحمود تضج في الغرفة، تحولت أرضنا إلى خبز طازج مرصع بالسمسم، دنوت من أمي أسرها عن قمر ضاع ولم أعرف وجهته، عن بئر يقي الراحلين العطش. فوجدت بداخلي خيمة بلا أوتاد والصهيل يسبح كزبد. أجدني ..أفقدني. .أضمني ..أضيع.. وأفيق على وضوء أم عوني فأدرك أنه الفجر.

فوق خيولي السود ثمة غيمات بيض أجدها على وجنتي ولدي الذي ناداني: ماء.. ماء.. ماء

هرعت كحمامة تشد جناحيها بحجر، مسحت جبينه

بمنديل مبلول بالماء البارد..
- ماما .. ماما أنا جائع .
جاءت كلماته كالحفيف، رقيقة كنسائم المطر، مالت غرّته مثل عصفور آمن وانشغل بنظرة حب لوجه خالته التي سمعتها تردّد:
- يا رب لا تجعلها صحوة موت.. يا حي.
مئذنة افترشت الأرض وصلت، وحولها حيتان تعوم في قنينة دواء وماء مغذٍ لا يكسب الرهان،
كعيون طفلة أرادت أن ترى الشمس ، ألتقي بالنساء صباح مساء، أصاب بنفاد الصبر وأنصت إجلالاً لصمت أخرى، والأمسيات بدون الدكتور وحيد تبدو عليلة، ومثلما دنيا مهجورة صعب وصولها إلى صداقة الأسئلة، يتدحرج الرنين دون أن يضيّء أي دربٍ، ثم يأتي يوم يفصح عن رثائه وتلحقه أيام تدفعني للجنون.
نسوة قدمن من القرى، مبجلات بتعب السنين، ونساء المدن يستضفنني مستأنسات بي، أمليت أختي طلباً غير آمر بإعداد العصير لهن معلنة سلامة ولدي ، نذير يعصف بداخلي والدكتور منذر أشك في جدارته ولا أشعر بميل نحوه. ويبدو وجهه يخفي خلفه وجهاً آخر، وثمة غرابة لم أكتشفها بعد ،أحاول أن أشد روحي كي

لا تفلت مني فأجد في عينيه نظرة شيطانية. أكذب حدسي:

- لا يا وصال الطب مهنة إنسانية ولا يمكن أن يكون هذا الدكتور وحشاً.

أتردد في تصوري فيموج غموض ويرسيني إلى ساحل الفراغ.

أفتح دفاتر بللها الدمع ، أجدني واقعة في قاع بئر، أغطي رأسي بيدي ، أغمض عينيّ، تلتف حولي وعود كاذبة وأرى تمثالاً رخامياً يسد باب الفرج.

في ساعة عشاء ، رغبت في التنزه قليلاً. وبنوع من التسلل خشية أن يستيقظ ولدي تركت سريره في محاولة لاستجداء نسمة، وصلت غرفة سكنها مرضاها قبل ثلاثة أيام، وجدت نزيلة غافية خلتُ أنها استسلمت للنوم، بدت كأنها في غياب تام ، فأدركت أنه فعل المنوّم، راعني شعرها المتساقط ووجهها الشاحب بعظامه الناتئة، حيث تسيّد منخار طويل وترك الشفاه ذابلة. المصل في اليد يسترزق من دمها كما راعني الدم النازف من الإبرة، كان رافضاً متحدياً، وقمع صغير امتد أنبوبه من أنفها ليصل المعدة، كانت في غيبوبة تامة ولا تقوى على بلع الريق، وهذه الطريقة الوحيدة

لإدامة الحياة فمن خلال القمع تُدّس لها السوائل. إذ ما عاد وريدها يتقبل أي مصل.

امرأة في الثلاثين خبأت بقايا عمر في حقيبة الزمن واستسلمت للنوم مرغمة في زهو السرطان بأعضائها والتهامه لها، في الكرسي المحاذي لسريرها امرأة عجوز ترتدي شيلة بيضاء من الململ ، بيضاء الوجه عسلية العينين مربوعة القامة موشومة اليدين والحنك حتى نهاية الرقبة، فلاح الوشم هلالاً يبزغ، وبيدها مروحة من الخوص تحرك بها هواءً شارداً وتستجدي نسمة. حين رأتني تركت لي مكاناً قربها :

- شدة وتزول يا حجية.. شدة وتزول.
- لا والله يا خالة لن تزول.
- إذاً ما العمل؟
- العمل عند رب العالمين..وحده القادر.

غدت كلماتي قاصرة وأنا أحاول أن أهدئ أمّاً ترى ابنتها تموت ببطء. كانت شمساً مطاردة، مسحت دموعها في طرف شيلتها فبان ساعدها الممتلىء أشبه بحمامة بيضاء مرقطة. نظرت لي شارحة:

- انظري ماذا فعل العلاج الكيماوي. . إنه العذاب والموت البطيء..آه ليتك رأيت ضفائرها الشقر.

ثم أجهشت بصوت مزق صدري.. بقيت معها ساعة كاملة كنت خارج أشلائي، لم أقاوم نظرة أم تستعطف الحياة وتتوسل الموت، هممت بالنهوض فتوسلت بي بحرقة.

- أحتاج جليساً أرجوك، ثم استطردت: هي أم لأربعة أطفال أكبرهم بنت في الرابعة عشرة وثلاثة أولاد أصغرهم سنتان.

كلما استمرت بالبكاء، أكتشف قصيدة العيون التي لم ينظمها شاعر ولم يتوصل إليها، كما لم يصل سؤالاً بسؤال.

حين نادتني أم عوني بسبب رغبة ولدي في قضاء حاجة تركتها مؤملة إياها بالعودة.. رغبت بالصياح فشربت جرعة ماء.. تنفست عميقاً، وتربعت على السرير، طرحت الصغير على صدري ووضعت القيصرية تحته، كان لقاء الصدر بالصدر والظهر المحموم بحيرة من جرح قادم.. وبهدوء الأم مددته على السرير وغفوت قربه.. بين الإغفاءة واليقظة خيل لي أني شاهدت محمود يغطيني بيديه الدافئتين فنمت قريرة العين، لحظة ثم أفقت على نار في قلبي.

- تصوري يا أم عوني حلمت أن محمود يغطيني.

ابتسمت :

- أنا قمت بهذه المهمة وليس محمود.

ضحكنا بصمت يُنبيء عن عذوبة نتلمس مفتاحها. وفجأة شعرنا أن كل ما نريده هو الكلام.. فرحنا نتحول من حديث إلى حديث.. ودونما رغبة في الحركة تحركنا نستقبل اضطرابات خاصة ونكتم أخرى للمصالحة مع الوقت. دخلت علينا إحدى النزيلات حاملة المن والسلوى مهلهلة بسلامة ابنتها ذات السنوات الثماني، وعلى حافة السرير جلسنا نأكل.. سمعنا صوتاً قرب الباب، تحركت ضلفتاه بيد الدكتور منذر ومعه طبيب آخر.. دخلا وانشغلا بالفحص والهمس، ثم تدارك الوضع وعرّفه لي. وقف مزهواً:

- أعرفك بالدكتور غفّار. ثم أشار إلى ولدي- هاهو معافى . لو لكل طفل مريض أم مثل وصال.

أجابت أم عوني:

- لكن الحمّى لا تفارقه ومازال يئن.

- سيشفى والعافية بالتدريج.. ثم طلب من الممرضة أن تسحب دماً من وريده.

- ولماذا الفحص؟

- فقط لنتأكد من شيء.

حكيت له عن المريضة التي زرتها البارحة ورحت أسرد عليه حكايتها مع المرض. حبس كلامه وأمسك بيدي.

- تعالي معي

- إلى أين؟

- فقط تعالي

قادني لأحد العنابر، هناك انفصلتُ عن روحي وأنكرني كلامي، حاولت جاهدة سرقة نظرة، تراجعت وشعرت بميل إلى التقيؤ أفرز حموضة حارقة. ركضت مسرعة إلى غرفتنا ودخلت الحمام لأفرغ ما في بطني..

- أين أخذك هذا الطبيب الأجرب؟

- ولمَ تنعتيه بالأجرب؟

- لست أدري.. فقط لا أحبه.

- لقد أخذني إلى عنبر النساء المريضات بالسرطان ، أكبرهن في الأربعين أو بالأحرى ضاعت عليّ الأعمار فكلهن بدون في كهولة غاصبة وشباب مغتصب وقد أصبحن كالأشباح. منهن من استؤصلت أرحامهن وأثداؤهن . ساعتها شعرت بالأرض بعدت عني ولم أتدارك خطواتي فأخذني الدوار.

- خذي قسطاً من الراحة . نامي قليلاً.
-لا شيء أخشاه أكثر من النوم.
- الكابوس ذاته!
- نعم بضفادعه، ما عدت أرى الضفادع تغطي السماء وتحرق البيوت كالسابق.. بل تتسلق النخيل وتدخل البيوت بيتاً بيتاً.حتى غدت الملابس ضفادع والأكل ضفادع. والماء ضفادع والأسرة تفقس ضفادع.
- لمَ لا تنامين، كم سيحمل قلمك، أتعبته حزنا.
- دعيني أسهر، فالسهر جميل أتسلى في مسائه بمقاسمة الظلام لونه وأعد على أصابعي.. أرسم شكل قلب، أعطيه فكرة.. ثم موضوعاً ... ثم .. ثم أعاود أسأل الليل: - أيسعدك أن أكون قربك؟
قالت أختي: هل يمكن محاورة الليل؟
- ليس هناك أجمل من محاورة ليل على الأكتاف.
أكتب كعادتي.. الوسيلة الوحيدة التي أفضي بها عن نفسي.. الورق خير من يسمع. الليلة عرفت لمن أكتب، فقد كانت كل رسائلي دون عنوان أو معنونَة له خاصة بعد ضياع زوجي. انتابتني حالة تفحص الذات.. وطفحت الكلمات .. بعدت عن واقعي الملموس.. غبت في هذيان الكتابة تراءي لي كأس.

كانت الطاولة قديمة والكأس لم تتذكر امتلاءها، فقط تتسع، تساقطت قطراتها على الأرض . لعقت التراب.. وثبت القطرات تستفزني.. بعد قليل أفقست القطرات ضفادع هجمت على ورقي وقلمي .

لملمتُ غيمة تدور حولي وجدت دموعي مكسورة وراء الجفون، كل شيء غريب حتى الماء له قرون، ووجه أختي ممسوحة ملامحه.

عدت أصالح أسئلتي وأتركها تلتصق بجدار القلب، استعدت توازني حين مرق طيف محمود.. تجمعنا على حصيرة صغيرة منقوشة بالحروف. فكانت النون امرأة ، والثاء ثمرة، والتاء غطاء. والباء باب بذاكرة منقوشة بألوان زاهية على الحصير.. فوجدتني أختم رسالة بيدي وأكتب إلى لقاء قريب . ناداني عوني، وجدته حاملا إناء فيه أسيد ووجه أخيه مقطع يأخذ حيزاً في الإناء.. كتل لحمية لا شكل لها..أمي وأبي وزوجه .

تذكرت المجنون (زيادو) ، ترى هل أكلته الضفادع؟ ثم أرجع أتساء ل: من أنت يا وحيد؟ مضيت سريعاً دون أن تترك خبراً لأختك، لعلك تدري لمَ خصصتك برسالة اليوم، أهو صفاء الذهن أم سعادة التحرر من عبودية الليل؟ مازال الليل صامتاً ومازلت أكتب لك..

أتراني أكتب في الفراغ؟ أهي ليلة يصحو بها الأحبة؟ أتراني سأجد من يعيدني إليّ؟ أفكر فيك كلما يموت مريض وكلما تزداد حرارة ولدي.. هو يبكي وأنت تغيب ومحمود يغيب.. كتبت وكتبت لك وله حتى كدت أرحم العذاب لأنه كان صبوراً معي.. هزتني أختي:- مضى وقت وأنت تكتبين. كفّي قليلاً. قلت : جميل أن أستحضر أعزّةً في الكتابة، والأجمل أني عرفت لمن أكتب.**

- 20 -

ربطتُ الأشياء بالأشياء
كي لا تسقط الثمار
لكنها
تعفّنت
وسقطت
على رياح الجنون .
كأني أرى خطواتي تتنقل
بين القلب والشرايين
مذهولة، سمعت صداها
وداعاً
ودا..ع
وعدتُ أثلم رغيفاً
خبّأه لي السهر..
أسرّكم..
أن العالم ضيقٌ
يلتصق
في إبرة السفر.
جدتي.. حين أذكرك أخرج من بساط الصمت وأفرد

الكلام، أتوهج بمجرد أن تمرين بخاطري، وأعانق الجمال المُطلَق... حتى فوضى الساعات العابث بي أراه يعانق الوقت ولا أعبه للفراغ ، بل أراه يحمل نافورة ماء صاف، فتطلين علي كمهرة تهرع إليها العشب ليزهو.
بقي القليل من الورق والجراح استحالت إلى كلمات.

* **

تناولنا الإفطار على عجل ورحنا نتطلع إلى حافلة ننتظر قدومها على صبر يفقد ثقته بتجلّدنا. ما إن شارفت الساعة التاسعة والنصف حتى ازدحم المكان بالضوضاء وتجمعت الحقائب ، تزينت النساء الأفريقيات فرحات بنشوة الاستقرار، والأطفال ارتدوا أحلى ما عندهم من ملابس، الرجال انشغلوا بحمل الحقائب للحافلة ونحن النساء تجمعنا نبصر الحافلة والطريق الذي سينقلنا لسفر جديد لا نعرف وجهته.

عند انطلاق الحافلة اغتسلت الأعين بالمطر، كان الطريق جميلاً، والمطر مصغياً لقلوبنا على زجاج النوافذ. الأشجار الخضر باسطة أجنحتها على مساحة فُرشت بالأخضر والأصفر والأبيض، فبدا الورد

الصغير سجادة منقوشة بألوانها الزاهية. رأيت السماء غابة سوداء لا يكفيني أن اقرأ العيون أو أتغلغل في أمنية بعد أن تشابكت أغصان الرجاء وصار لها طعم التواصل.

كم تمنيت أن أرشف الدمع.. تلونت بكل الأشياء وشربنا العصير والشاي البارد وأكلنا أرغفة محشوة بالبيض والمايونيز والدجاج المسلوق. فاشتهيت سمكة نهرية مشوية محشوة بالبصل والثوم والليمون والبهارات . لكت قضمة من الساندويتش الفاتر المذاق وبلعتها بالغصب. دارت النقاشات لتسلية الوقت والقضاء على طول المسافة.. وكالعادة العراقي لا يخلو من شحنة سياسية ،ا لطبيب البصراوي له اطلاع بالثقافة وزوجته كذلك، أما صديقنا المصلاوي فلا يملك غير مزحة بريئة ومداعبة أطفاله.

تحاورنا عن الأمية في بلداننا، وعن القراءة والاطلاع وعن كذب الصحف على الذقون. حكام يسعون جاهدين لترك شعوبهم في جهلها وأميّتها، وتتركهم يلوكون العوز والفقر، واتفقنا على رأي واحد. اللقمة أفضل من الكتاب، وإلا ماذا يفعل الجائع. تحدثنا عن دور المثقف في صنع القرار، فقد كان يملك سلطة

ثقافيــة تخولــه أن يخلــق مــصير أمــة، والآن مــصيره التشرد والسجون، فأي أمة يخلق مصيرها بائعو ثلج أو شرطة لا يعرفون كتابة أسمائهم. أو .. أولاد...

قلت للدكتور:

- أسفي علـى ثقافـة تـصفق وأدبـاء يمارسـون شـذوذهم الأدبـي، مبعثـر الأشـلاء تجمعهم أشـباحهم التـي دمغـت عليهم بالخضوع.

أجابه رجل فلسطيني:

- أسفنا نحن على قضيتنا التي سُحقت بأحذيـة حكامها. كيف نحكّ جلداً يخون. يبيعوننا من أجل كراسيهم.

قلت:

- تماماً مثل المعارضـة التـي تـسكن القصور وتمـلأ الكـروش. يـصعدون علـى أكتـاف الـشعب ومـن أجـل مرارة الشعب، تملأ حقائبهم بالنقود ، ومن أجلهم نموت نحن، ويسكرون مع غانياتهم للصبح، لكنهم زبَد، مجرد زبَد.

بكى أطفال .. وتقيأت فتيات.. ولعب أحد الصغار في الممر الضيق للحافلة.. غنت إحدى الأفريقيات بصوت جميـل وبحّـة خاصـة ، طربنـا لهـا والتزمنـا الـصمت.. وذابت الأماني بحمام دافئ.. وصغرت وتهجّت قراءاتها

التي لم تعد لها معنى.. وصار اقترابي بعيداً.

مددت يدي إلى حقيبتي اليدوية، وجدتها تحدق بي مبتسمة، كلما أدرت وجهي لجهة أجد رفيقة ليلي، لم اعتدت رؤيتها في الصباح.

خُيّلَ لي أن الجميع يتلفت حولي، ربما ظنوا أني أحاكي نفسي حين سألتها: لماذا الآن؟ لم يخطر ببالي ظهورها علناً أمام الجميع. أتراهم رأوها؟

راق لي منظر شجرة ملؤها ورد أبيض ، بدت غابة بيضاء.. أسندت رأسي إلى زجاج النافذة. دسّتْ يدها في حقيبتي وبلمسة طلبت مني الصمت.

منظرها وهي تكتب دون أن تكترث لأحد.. أشبه بطير خبأ جناحيه في صدره، لمست جلدها يلتصق بي، رأيت عينيها أكثر اتساعاً ولمعاناً.. ومن خلال المطر الرقيق رحت أعدّ الأشجار وأسألها أيتها تدعوني إليها وأيتها تشفق علي، المسافة طويلة مملة ، الأشجار الخضر حولنها إلى نزهة . آية من جمال الخالق . أجمل رسام للطبيعة، كدت أطبق جفني، لكنها بين الحين والحين توشوش في أذني: أنا فقط التي تراكِ.

كلما تمددت خيوط النعاس على أجفاني أصحُو على حرف يتلعثم في قلمها فأتركها وأحمل عينيّ إلى

الطريق.
في الخامسة مساءً وصلنا مدينة ليدز . فوجئنا بوجود عائلة سبقتنا قبل شهر.. حيث وصلنا إلى هوستل جديد. استقبلونا بترحاب متوتر، بفوضوية مقصودة وراحوا يوزعوننا.. العائلة في غرفة صغيرة. السرير من ثلاثة طوابق، طابق للأب وللأم والثالث للطفل والحمامات مشتركة، جلسنا نصبر على حزننا ونتأمل لمن ستكون الحصة القادمة ومن صاحب النصيب.
أصابتنا هستيريا الضحك ورحنا نضحك بجنون على كل شيء حتى ابيضت عيوننا واحمرت، ورفيقتي تكتب. ثم تصمت وتلقي نظرة خاطفة وتحمّل ظنها هزة من رأس.
وصلت سيارة تقودها فتاة ورجل يحمل أوراقاً، أشير إلينا بالصعود أنا والعائلة العراقية البصرية وفلسطيني وزوجته. لا ندري وجهتنا، صعدنا بصمت، من خلال أحاديث الدكتور مع مرافق السيدة عرفنا أن وجهتنا مدينة (هلّ)، وسنسكن الشقق.. أي نحن محظوظين.. هبط مرفأ السلام وانتظرنا الرصيف.
جمد تفكيري وشُل ، لا تعلق بذهني أو فكرة ، فقط يحتويني الفراغ. الساعات الطويلة تسابق الرغبات

وشرارة الأمان لا تقدر بثمن.

في الثامنة مساءً دخلت شقتي برفقة السائقة التي راحت تتفقد محتويات الشقة وتدونها على ورقة أمامي.. ووعدتني بإحضار النواقص غداً، هززت رأسي بالإيجاب .. ثم أصابتني رجفة باردة.

وحين وقعت على الورق.. وجدت وجهها على الورق يستهزئ مني.. فتركت اسمي ينقش نفسه.

لم أفكر بشيء سوى الحمام. ملأت البانيو ماءً ساخناً. فتحت الكيس الذي أعطوه لنا قرب الشقة.. احتوى على ملح وشامبو وصابون لغسل الملابس وصابون يد وعلبة ساردين وعلبة بازلاء ، وفرشاة أسنان ومعجون أسنان، وشاي وسكر.

في الحمام جلست قبالتي، انحنى كلها فبدت كرة لا شكل لها.. وضعت رأسها بين قدميها وظهرها سحابة محنيّة ووجها تتبعه المساءات كلها. انتهيت من حمامي الساخن، خرجتْ معي إلى الصالة.. فردَتْ الأوراق على طاولة صغيرة.. كتبتْ كلمات مبعثرة ومشوّشة، ثم غادرتْ دون أن أراها أو أستمهلها.

ارتعش الهواء وارتجفت الستائر ، فنمت على فراشٍ واسع وشرشف جديد.

منذ مرافقة الظل لي لم أذق نوماً كالبارحة ، نمت نوم الخنجر في غمده ، كل شيء هزيل ونحيل ، هكذا صباحي في شقتي الجيدة ،المكان ساكنٌ ووحش، ببطء تحركت وهيأت نفسي لتقبّل أي وضع ، جعلني السكون أصغي لدبيب حشرة ورافقتي صغار الغربان وشاركتني أغانٍ ثقال.

أطلت النظر في الأبواب القديمة والجدران المبقعة في شقة أتعبها ساكنوها قبلي حتى انصرف النهار وغدا العصر على الأبواب، أطلت عليّ السائقة حاملة سكاكين وشوكاً وملاعق وستارة صغيرة، هذت بسرعة وذهب معها وجهها القبيح.

أعددت لي كوباً من الشاي، جلست على أريكة أعدّت لتكون للجلوس والنوم، تمددت وتصورت الموت هنا وحدي غريبة بعيدة عن المدينة الطينية بين الفراغ والفراغ ، تذكرت الأوراق التي تركتها لي رفيقتي.. أصابني الفضول فمسكتها ورقة ثم ورقة.

نويت قول شيئاً لم أسطع ،جمعت انكساراتي وانطويتُ بعزلة نسر، ألملم قلبي وأصعد إلى أسفل الحياة. أفتح هاوية وأنغلق عليّ .. ثم أقرأ مملوءة بها.

- 21 -

أنا ضيفةُ الوداع الأخير.

سيدتي الحزينة:

**

أمنحُ نفسي صبر أيوب ، تهدني اتجاهات عمياء ، وأفاعٍ مرقطة ، أحدث السقف وأعدها سقفاً سقفاً،لا مأوى، أثور على ألمي ، تثور خمسة عشر يوماً بجراحتها الفاشلة. قررت أن صنع كلاماً جديداً، اخترت أبجدية أخرى لأتعرف على عربيتها ، ترطن .. أمد لساني أحسه خشبة ، صار بين لساني نوافذ من زجاج ومسامير .. وجدب..

دخل دكتور منذر متوتراً.

- ما الأمر، دكتور قل لي بصراحة؟

- أصارحكِ، إننا قدمنا أقصى ما بوسعنا، لكن انقطاع التيار الكهربائي وعطل المحولة أثناء الجراحة أربكنا ، فأتممنا العملية على ضوء الشموع والفوانيس والعرق

يتصبب كالنزيف من جباهنا واحتمال حدوث خطأ وارد.. فالضوء لا يكفي لنتمكن من امتداد القيح الذي وصل العظم وأتلف الرئة ومن الصعب استئصال الأورام وتنظيف المكان جيدا.
لطمت صارخة : إذاً
- إذاً لا بد من جراحة ثانية لإنقاذ الرئة.
وثبت أختي صارخة :
- أموالنا وأرواحنا بيد السيدة المحوّلة. وطبيب ف...
قاطعها: لا دخل لفشلنا نحن الأطباء، تصوري نفسك مكاننا ماذا تفعلين على شموع.. مجرد ضوء شموع وفوانيس وحر وعرق، وغرفة عمليات دون تعقيم.
صرخت بأعلى صوتي :
- أريد دكتور وحيد . أين هو ؟ لماذا لم يأت؟
غمزت لي ممرضة كانت ترافق وحيداً دائماً . سكتُ وأدركت عمق الحفرة التي أنا فيها.
- سيدتي . غداً أو بعد غد، تهيئي لتكوني مع جراحة ثانية.
عرفت قصده. كان يقصد الأجور الجديدة. غادر غرفتنا متوجهاً إلى سرير آخر وغرفة أخرى وأجور جديدة.
- يا أختاه ما العمل؟ أرشديني بروح عوني.. لا أدري

ما العمل؟
قالت: - لنخرج من هذه المستشفى، فبعد الدكتور وحيد الطب عاطل.. وحيد غادر الجميع. رجعت الممرضة بحجة أن تقيس حرارة ولدي.
- أخت وصال ،لا تسألي عن وحيد فله أعداء كثيرون وخاصة دكتور منذر ، هو الذي وشى به للأمن وأخذوه ظهراً .. والله أعلم أين هو الآن؟
كنت على يقين بأن الملائكة لا تألفها الشياطين.
- اسمعي هل يمكنني الخروج من هنا؟
- نعم بشرط أن تسددي ما عليك وتوقعي على مسؤوليتك.
- طيب أتمني أن تكملي الإجراءات وسأوقع غداً . فليس في مشفاكم ما يشفي الدرن، هنا الضفادع التي تفترس الظن..
في اليوم الثاني. كان الباب صامتاً والردهات مشكوكاً بها. وكانت هناك أجفان مغمضة بين يديّ. حفرت قدماي طريقهما وأم عوني تتبعني.. عطس ولدي. ثم تنفس دون أن يعيد النفس..

الشمس متصلبة، أسلاك الكهرباء والمباني تصم

آذانها لصراخي والطرقات تدور حولي.. الشجر بارد يحرث أعضاءه.. المارة جميعاً دخان أسود يطوف المدينة. حملت ولدي الرخو بين يدي وطفت بغداد.. تقودني قدمان تائهتان ،أجرجر امرأة تعربد دموعها ورائي. تلحقني لتمسك طرف ثوبي وتلحق بي... لكني أركض، أعدو خلف الرجال، خلف العُقل والغِتر، خلف المدارس والبيوت، خلف دور الصحف والعيادات والصيدليات، وحول نفسي. أدور.. ذهبت إلى النهر، رميت بعض الرسائل .. قفزت الضفادع منقنقة والتهمتها.

ليس سوى الدم اليابس في العروق، ولمرأتان تعدوان بسرعة مبهمة.

الشمس قبّرة عمياء.. بعثرت بقية الرسائل في الهواء وبيدي خرساء لا أعرفها. كان الوقت ظهراً ، وكانت الرسائل تطفو في الشوارع والعقول، وعلى أجنة النباتات وأجنة الطيور، وكنت أنا أحلق في هواء لا أعرفه وبأقصى الجنون والفراغ يهذي..

- 22 -

كيف ينزعُ الجبلُ ملابسه؟

البارحة جدتي، غفوتُ ورأسي في حجركِ ، ويدكِ على قلبي، وحين احتوتني ضلوعكِ شممتُ عطرك ورائحة الحنّاء في شعركِ.
وقبل أن أغفو مددت يدي لألعب بجديلتكِ ، سألتكِ:
جدتي..
أجبتِ أعرف ما ستقولين:
حفيدتي: تصيري، وكوني نفسكِ في أية ضائقة أو مصاب،حين تكونين أنت كما أنتِ يأتيك الليل طائعا.
سيمضي الوقت ويعرف الجميع انكِ كنت حقاً وسيبقى الحق في عينيكِ،،، ما هم الآ كراس وأوسمة، وأنت الأرض.
جدتي.. بلغتكِ أناغي نفسي وأرجع طفلة تلهو بألوان الطيف.

***

تعودت أن أنام ونافذتي مشرعة. لعلي أسمع صوت آذان الفجر، أؤمل نفسي بما يشبه الصوت ، يمر السكارى كأسراب طيور فقدت أجنتها. تزحف دون مسار.. وثمة حافلات مسرعة، وفي كل صباح أرفع فوطة الحمام التي أستعملها كستارة لباب نصفه الأعلى من زجاج والأسفل من خشب.. أتفحص لعل رسالة خاطئة تصلني.. هذا الاستعراض اليومي أصبح عادة لي إذ لا أنيس سوى الوحدة. كم مرة انتظرت الفجر وارتجاج فزع في عروقي، يقيني من شيء مرعب لا أعرفه.. لربما هو المصير.

تتدحرج الوسادة تحت رأسي.. أنهض ثم أعود مرتمية على الفراش.. يلتهب صدغي عرقا، والليالي لا تهجع أصباحها تكشف عن عورة مستباحة.

في الصباح، أخرج لأتنزه على كل شيء فلا أجد لي صلة بشيء. أختار جليساً على مصطبة في الشارع. أحدثه ، ألهو مع الطيور التي تملأ المقاعد. أباغت الظل تحت الأشجار و أراقب الغيوم. وفي داخلي إحساس مسموم ، أتذكر المطر المتساقط على النخيل والمزاريب والأبواب والطلع، وشارعَ الكورنيش.. أجلس ساعات طوال من أجل الحب ومن أجل أرض

تحمي قدمي من اعوجاج الطريق.. ثم أعود أدراجي.

في خوف من النوم أستطلع الشقة شبراً شبراً ولا أرى الا ظلي. أحاول جاهدة الوصول إلى رفيقتي، ليس سوى الظل يشرب معي فأجدني أشبه بإناء فارغ.

تمر الساعات وأنامل المساء العابثة تملأ الوقت وقلبي على وشك التسليم التام. ما الذي يجفف اللسان؟ ما الذي يجعل العنق طريا دون عظام؟

أجدني الأولى والأخرى.. تحيطني أسماء عديدة. تحشرني مريم في قديمها. تصرخ بها زينب:

- لا ما هكذا يموت الكريم .

تجرني سُكينة من ثيابي، تجمعني كصرة حول نفسي. أحترق .. أختنق . وأتنفس بخار أنفاسي. أغرق في إيقاعي.. أتغطى بأحزان وصال..

أتشردُ محفوفة بالسيوف . احترتُ ماذا أسمّي الجسد الذي يرافقني ، أجده خارج الوصف لا تعرفه الأسماء كلها ، مجرد رأس يجر أعضاءً مثقلة ، ما الذي عليّ فعله ووصال مجرد اسم كان، اسم فقد إطاره ولوحة لم تكتمل، أطلّ من النافذة أجد رجلين يتجامعان في غرفة التلفونات واسمع شخيرهما، يهتزّ عنقي بهلوسة مرّة

،أهرب من زيارات زوجة الدكتور البصري دون موعد ، أطل على حشد الأطفال في الحديقة الصغيرة فتتبعثر الأحلام كخيط بائد قديم وتتقطّع على شكل فتيات عاريات ، في الممر سمعت صراخ طفل ، خرجت لأستعلم الأمر ، كان مجرد ظل واختفى ، رأيت قرب باب الشقة كيس من القمامة مملوءا بالأوراق ، أخذني فضول التغرف على محتوياتها ، وجدتها مجرد حروف لكلمة واحدة (أيام) أيام بكيس وسخ جررتها ورميتها ببرميل الزبالة. رجعتُ إلى المطبخ ، وجدتها تلحقني ، تجلس على صدري ، وتضحك بثقلها عليّ ، شعرتُ باختناق ، تدفقت سكينة من حنجرتي

سكّ..

ي،،

ن..

سكّين

وحدي أنا إذاً، ألهو بقرحة أحشاء شقة كهلة ، ورصاص من ساعي بريد .أغتسل بيوم مالح وأعود إلى داخلي ، سُكَينات تائهات يربطن سكينة بتائها

المنفلتة.. ويمسحن الدم من سكّينتها .

يتعتع ثغري بخشخشة كلماتهِ ،. لم يبقَ لي غير جسد أرافقه ونسغ هشّ لشجرة تكالبت عليها الريح . أهيئ قلبي لنهشة جديدة ، أضع أقواسا لاسمي (سُكينة) وأتأمل عاما جديداً . عام داعرٌ يبحث بين أيام الأسبوع عن ردفين ،عن جمْعةٍ مومس.

عن الشاعرة:

*وفاء عبد الرزاق
*مواليد العراق -البصرة 1952
*المملكة المتحدة -لندن
*دبلوم محاسبة.

الجوائز:

1 حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب "على أن يكون موضوعا لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي بجامعة تبسة الجزائر . 2009
2 حاز ديوان "من مذكرات طفل الحرب "بعد ترجمته الى اللغة الفرنسية "دار لارمتان "فرنسا في مشروعها السنوي "من القارات الخمس "على أن يكون ضمن من يمثل قارة آسيا تحت اشراف البروفسور"جوزيف تومسيان"
3 حازت على تكرم من وزارة الثقافة المصرية كافضل شاعرة عربية لعام 2009وذلك لجهودها الثقافية والانسانية وسلمها الدرع مدير عام قصر الثقافة في مدينة الاسماعيلية الأستاذ "أحمد مطاوع."
4 حازت على تكريم من جمعية المترجمين واللغويين المصريين مع عضوية شرف في حفل تم برعاية الدكتور حسام الدين مصطفى رئيس الجمعية.
5 حازت على الدرع الذهبي والجائزة الاولى في مسابقة

نجيب محفوظ للقصة القصيرة عن قصتها "الليلة التي لم تجد متعة -"مصر دار الكلمة نغم . 2009
6 حازت على الجائزة الأولي بمسابقة القصة القصيرة " مؤسسة أور الثقافية الحرة "العراق عن قصتها"أربع اقدام وسطح.2009"
7 حازت على الجائزة الذهبية -الملتقى الثقافي العربي مصر عن قصتها"الجثث تشرب العصير. 2009 "
8 حازت على الجائزة الثالثة -اتحاد الادباء العراقي - النجف مسابقة القصة القصيرة عن قصتها "عقابٌ أم ثواب. 2009 "
9 حازت على جائزة المتروبوليت نقولاوس نعمان للفضائل الإنسانيَّة لبنان 2008عن مخطوطها المعنون (من مذكرات طفل الحرب).
10 حازت على جائزة (قلادة العنقاء الذهبية للإبداع) التي يمنحها مهرجان العنقاء الذهبية الدولي (العراق لعام 2008.
11 حازت عل وسام الوفاء (نادي ثقافة الأطفال الأيتام) م (النخلة البيضاء 2008)العراق.
12حازت على تكريم من الديوان الثقافي العراقي -لندن 2008.
13حازت على تكريم من مؤسسة النور الثقافية -العراق -السويد .2008

المشاركات:
13سفيرة نادي ثقافة أطفال العراق الأيتام -لندن م (النخلة البيضاء).
14المديرة الدولية للمشاريع الخيرية والإنسانية لمؤسسة النخلة البيضاء العراق.
15الممثل الرسمي لائتلاف منظمات المجتمع المدني العراقي في لندن.
16عضو الهيئة العليا المشرفة على برلمان الطفل العراقي، العراق.
17المديرة التنفيذية لمهرجان العنقاء الذهبية الدولي الرحال ومسؤولة المتابعات الخارجية للمهرجان .
18عضو الهيئة الاستشارية المشرفة لمهرجان الهربان السينمائي الدولي العراق.
19عضو مؤسس ورئيس مجلس إدارة مؤسسة ودار ومجلة وجريدة كلمة الثقافية ، مصر.
20المديرة التنفيذية ومسؤولة العلاقات الخارجية لمؤسسة أور المستقلة للثقافة الحرة، العراق.
21رُشحت سفيرة للنوايا الحسنة من قبل المؤسسات الثقافية المدنية غير الحكومية ونخبة من المثقفين والمبدعين الملتزمين بقضايا الإنسان والإبداع 2008.
22شاركت في تأسيس (كالري النخلة البيضاء (و)دار النخلة البيضاء لرعاية وتأهيل أطفال الشوارع العراق.
العضوية:
عضو فخري في جمعية المترجمين واللغويين المصرية ،

مصر.
عضو :حركة شعراء حول العالم ، شيلي .
عضو :مؤسس في مؤسسة رسول الأمل الانسانية ، لندن .
عضو :رابطة الأدباء العرب مصر.
عضو :منظمة كتاب بلا حدود المانيا .
عضو :منتدى الكتاب المغتربين لندن.
عضو :الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق .
عضو :إداري في المنتدى العراقي مسؤولة اللجنة الثقافية ـلندن (تحرير جريدة المنتدى)سابقا.
عضو :فخري في الملتقى الثقافي البحرين.
عضو :الملتقى الثقافي العراقي سوريا ..
عضو :جمعية الشعراء الشعبيين، العراق .
عضو :منتدى القصة السورية سوريا.
عضو :اتحاد كتاب الانترنيت العرب.
عضو :في اتحاد ادباء الانترنيت العراقي.
عضو :في تجمّع العشراء العرب.

الإصدارات:
أ ـاصدار صوتي:
عدد CD 6شعر ، القاء وموسيقى شعر شعبي.
ب ـالشعر الفصيح:

1ـ هذا المساءُ لا يعرفني :مؤسسة الانتشار العربي -

لبنان 1999

-2حين يكون المفتاحُ أعمى :مؤسسة الانتشار العربي - لبنان 19991

-3للمرايا شمسٌ مبلولة الأهداب -دار الكندي -الأردن 2000

-4نافذة فلتت من جدران البيت -منشورات بابل - العراق 2006

-5من مذكرات طفل الحرب -دار نعمان للثقافة -لبنان 8 200

-6حكاية منغولية -دار نعمان للثقافة -لبنا ن 200 8

-7من مذكرات طفل الحرب باللغة الفرنسية -دار لارمتان -فرنسا 2009

-8أمنحُني نفسي والخارطة -دار الكلمة نغم -مصر 2009

-9طبعة ثانية، من مذكرات طفل الحرب -دار الكلمة نغم -مصر2090

-10البيتُ يمشي حافيا -دار كلمة -مصر 2010

- 11من مذكرات طفل الحرب -طبعة ثالثة -مصر 2010

الشعر الشعبي:

-1أنا وشويّة مطر -دار الكندي الأردن 1999

-2وقوّسَتْ ظهر البحر -دار الكندي الأردن 1999

-3مزامير الجنوب -دار الموسوي أبوظبي 1996

-4تبللت كلي بضواك -دار كلمة مصر 2010

- 5عبد الله نبتة لم تُقرأ في حقل الله دار كلمة مصر 2010
- 6بالقلب غصّة -دار كلمة مصر 2010

الروايات:
-1بيتٌ في مدينة الإنتظار -دارالكندي الأردن 2001
-2تفاصيل لا تُسعف الذاكرة -دار الكندي الأردن .2000 رواية شعرية
-3السماء تعود الى اهلها -دار كلمة -مصر 2010
- 4اقصى الجنون الفراغ يهذي -دار كلمة -مصر 2010

مجاميع قصصية:
1 إذن الليلُ بخير -دار الركندي الأردن 2000
2 امرأةٌ بزيِّ جسد -دار الكلمة نغم -مصر 2009 -
3 نقط -دار كلمة -مصر 2010 -
4 بعضٌ من لياليها -دار كلمة -مصر 2010

مجموعة قصصية قيد الطبع:

1 بقعة ارتجاف حرة مشروع قصصي شعري فني مشترك، الكاتبة سعاد الجزائري قصص قصيرة، وفاء عبد الرزاق شعر،الفنانة عفيفة لعيبي رسم.فكرة العمل محاكاة المجموعة القصصية للكاتبة سعاد الجزائري

شعريا وفنيا، ويشمل الكتاب لكل قصة قصيدة ولوحة.
-2بعضٌ من لياليها .

مخطوطات:

أ -الشعر الفصيح:

-1مدخلٌ للضوء.
-2أدخلُ جسدي أدخلكم.
– 3أم البشر ، صورة وقصيدة.

ب -الشعر الشعبي:

-1حزن الجوري2.
-2ترنيمة الفراشات..
-3نايات لها شكلي.
-4انتماءات لوجع المطر.

قصص قصيرة شعرية:

3 وجوه، اشباح، أخيلة.

الترجمات:

1 تُرجمتْ بعض الأعمال الى اللغة الانجليزية والفارسية .. والفرنسية والايطالية والتركية واللغة الكردية ويقام حاليا

الترجمة إلى الإسبانية.
-2ترجمت بعض الاعمال الشعرية الى اللغة الفرنسية في موسوعة السلام العالمي للابداع .
ـ3تـُرجمت بعض أشعار (من مذكرات طفل الحرب) الى اللغة التركية ضمن موسوعة السلام للطفل.
ـ 4تمت ترجمة ديوان (من مذكرات طفل الحرب) الى اللغة الانكليزية والفرنسية والايطالية ،، ضمن مشروع فلم سينمائي يدعو الى السلام العالمي بإسم الطفل العربي وبإسم الطفولة في العالم .وستصاحب عرض الفلم بعد انجازه تظاهرة فنية أدبية وذلك بجهود فنانين وكتاب وشعراء آمنوا برسالته وتطوعوا للعمل في هذا المشروع.

المساهمات:
- 1نشرت في العديد من الصحف والمجلات العربية.
ـ 3ساهمت في العديد من المهرجانات الشعرية والأمسيات الثقافية عربياً وعالمياً .
ـ 4شاركت في مهرجان السلام العالمي للشعر، فرنسا .

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٠ / ١١٣٤٣

الترقيم الدولى I.S.B.N

978-977-374-607-0

إصدار دار نشر كلمة
للتواصل
m-nahm@hotmail.com
m-nahm2000@yahoo.com

هاتف من داخل مصر ٠١٩٢٢٢١٣٣٧
من خارج مصر ٠٠٢٠١٩٢٢٢١٣٣٧



التفاصيل تمتد، منذ الآلف مليون نبتة في اول حقول سومر،
الى عشتار العالم وأكديات يتوالدن الآلم، الى تموزيين بعدد
النخيل الشهيد في بصرة المياه والشناشيل وفتح الفتوح..
والى كربلاء لاتزال، اذ تتحول العراقيات ... نب
الأسى ولكن أيضا الى سكينة الشموخ ... دي..
إليهن، واليهم، وبأقصى الجنون.. ... دي

القاهرة


2010